تركيب التخييل واحتياط المؤلف لمعناه في فكر الزمخشري
(قراءة في الكشاف في ضوء النظريات اللغوية الحديثة)

د. حمدي علي بدوي أحمد (*)

الملخص باللغة العربية :

يدرُس هذا البحث أبعاد دلالة تركيب التخييل وقدرتها على تصوير المعانى، ومعاونتها للمؤلف في الاحتياط لمعناه المقصود؛ بصورة تمنح ذهن المتلقى إحاطة تامة بجزئيات المعنى، وتُسهم فى عرض تفاصيله، وفى توفير بيئة دلالية للمعنى موصوفة بالصدق والدقة والإمتاع والإقناع، فى فكر الزمخشرى المعتزلي (ت٥٣٨هـ)، الذى برع فى التوظيف الحسن لدلالة تركيب التخييل، حتى بدا سابقًا لكثير من المدارس اللسانية الحديثة ومحيطًا بأبعادها، ذات العلاقة بطرائق التعبير عن المعانى، وسبل عرضها، وضوابط تحليلها وتفسيرها، ويأتى على رأس هذه المدارس: البنيوية التفكيكية، والتوليدية التحويلية، والتداولية.

الكلمات الافتتاحية: الكشاف، الزمخشرى، التركيب- التخييل، الاحتياط للمعنى.

(Abstract)

The Structure of Imagination and the Author's Reserve of Meaning in Al-Zamakhshari's Thought:
(A reading in *Al-Kashshãf* in the Light of Modern Linguistic Theories).

This study investigates the function of imagination and its ability to depict meanings. Besides, the study tackles the imagination's assistance to the author in preparing for its intended meaning in a way that gives the addressee's mind a complete grasp of the details of the intended meaning. Moreover, it contributes to presenting the details of meaning, and provides a semantic environment for the meaning described as truthfulness, accuracy, enjoyment, and persuasion, in the thought of Al-Zamakhshari Al-Mu'tazili (d. 538 AH). Al-Zamakhshari excelled in employing well and connoting the structure of imagination in the reserve of its central meaning, to the point that it seemed to precede many modern linguistic schools and surround its dimensions, related to the methods of expressing meanings, the ways of presenting them, and the controls for their

(*) مدرس علم اللغة، بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الألسن، جامعة الأقصر.

analysis and interpretation. These schools include the Structural-Deconstruction, Transformational-Generative, and the school of Pragmatics.

(Keywords): Al-Kashshaf, Al-Zamakhshari, Structure, Imagination, Reserve of Meaning.

(الإطار العام للبحث) وفيه: موضوعه، وأسباب اختياره، وفرضياته، وأهدافه، وحدوده، وتساؤلاته، وبعض الدراسات السابقة، وذلك على النحو الآتى:

- **موضوع البحث:**

- يدرس البحث أبعاد دلالة تركيب التخييل، فى فكر الزمخشرى؛ بهدف تأكيد سبْقِه لكثير من المدارس اللسانية الحديثة.

- **أهداف البحث:**

- بحث مصطلح دلالة تركيب التخييل، ومحاولة تحريره.
- الكشف عن كونه فعلًا كلاميًّا؛ يُجاء به احتياطًا للمعنى.

- **فرضيات البحث:**

- يمثِّل الزمخشرى أيقونة لغوية فى علوم اللغة العربية بصورة عامة.
- تُشكِّل آلية التواصل بين الزمخشرى وبين متلقيه فكرة تداولية.
- يؤكِّد كتاب الكشاف إدراك الزمخشرى كوْن دلالة تركيب التخييل سببًا من أسباب احتياط المؤلف لمعناه.

- **التساؤلات البحثية: وهى:**

السؤال الرئيس: ما الروابط بين تناول عبد القاهر الجرجانى والزمخشرى حول تركيب التخييل ودوره فى الاحتياط للمعانى المركزية أو الهامشية؟ ويتفرع منه:

- **هل ساق الزمخشري من الأدلة وشواهد التمثيل، وحُسْن التوظيف؛ ما يصلح أن يسترعى البحث، ويصمد أمام معاملات الثبات، والصدق؟**
- **هل استطاع الزمخشرى أن يُضيف إلى ما جاء به عبد القاهر فى دلالة التخييل؟**
- **هل استطاع أن يقدِّم شيئًا جديدًا لفن قراءة النص من خلال آلية تركيب التخييل؟.**
- **هل نجح الزمخشرى فى الاحتياط لمعناه/قصده المركزى؟.**

الحدود البحثية: شمل الحد البشرى: عبد القاهر الجُرجانى والزمخشرى، فى حين اختص الحد الموضوعى بدراسة تركيب التخييل واحتياط المؤلف لمعناه، وقد اعتمد البحث المنهج الوصفى؛ وما يتصل به من آليات الرصد، والتحليل.

الدراسات السابقة: (دراسة فى فاعلية التخييل فى الدرس النقدى القديم)، محمد خليفة، قاعدة بيانات الملخصات العلمية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمى، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٧م. عدد الصفحات: ٧٨، مركز المعرفة الرقمى، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، الشبكة العنكبوتية،

ddl.mbrf.ae/book/51 ، وقت الدخول: ٢٠٢٤/٤/٢٦م، فى تمام الساعة: ١١.٢٤، بتوقيت جمهورية مصر العربية.

أشار المؤلف إلى كوْن تركيب التخييل هو مما يتصل بالأفعال الذاتية، التى تعبِّر عن حديث النفس وإرادتها، مما يجعل لتركيب التخييل القيمة الكبرى فى بناء الصورة الفنية للإبداع. وقد نبَّهت الدراسة إلى أن التخييل يعد جسرًا، يربط بين المؤلف والمتلقى، كما أنها عالجت بعض مباحث التخييل؛ من مثل: النشاط التخييلى والصورة الفنية، التخييل والتقديم الحسى للمعنى، النشاط التخييلى والجانب العقلى فى التصوير، التخييل والصدق. ويختلف البحث الحالى فى مجال التطبيق؛ إذ يدرس البحث الحالى الدلالة اللغوية لتركيب التخييل فى فكر الزمخشرى، كونه سابقًا لكثير من المدارس اللسانية الحديثة، ويُنبِّه إلى كونه سببًا من أسباب احتياط المؤلف لمعناه.

(محتوى البحث):اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتى فى إطار عام للبحث، ومقدمة، وفصلين، يشكِّل الفصل الأول: الجانب النظرى للبحث، ويتضمن الفصل الثانى الجانب التطبيقى له، وخاتمة، ثم المصادر والمراجع.

المقدمة، ضمَّنها الباحث إشارة مقتضبة حول تباين الرؤى حول دلالة تركيب التخييل.

التمهيد : ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الأصول النظرية لدلالة تركيب التخييل(آليات الارتكاز).

المطلب الثانى: روابط فكرية بين التنظير والتطبيق.

الفصل الأول، ويُمثِّل الجانب النظرى للبحث، مصطلح دلالة تركيب التخييل فى فكر الزمخشرى (ضبط الدلالة واستقرار المصطلح)، وقد قسمتُه إلى ثلاثة مباحث، هى:

المبحث الأول: مصطلح دلالة تركيب التخييل (ضبط الدلالة) وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الدلالة المعجمية للتخييل عند الزمخشرى.

المطلب الثانى: الأبعاد الدلالية لتركيب التخييل فى فكر الزمخشرى.

المبحث الثانى: استقرار المصطلح.

المبحث الثالث: دلالة تركيب التخييل قصدية الاستخدام و حسن التوظيف.

الفصل الثانى:(الجانب التطبيقى) نماذج لتطبيقات دلالة تركيب التخييل واحتياط المؤلف لمعناه، فى ضوء بعض المدارس اللسانية الحديثة، وقد اشتمل على ميحثين:

المبحث الأول:دلالة تركيب التخييل من أنساق الإقناع بالدلالة الكلية، وفيه ما يلى:

المطلب الأول: دلالة تركيب التخييل واحتمالية التأويل فى السياق التداولى.

المطلب الثانى: دلالة تركيب التخييل دالة على انفعال الذات.

المطلب الثالث: دلالة تركيب التخييل وحمل المعنى المضمن فى فعل التلفظ.

المطلب الرابع: دلالة تركيب التخييل واتساع طاقة التلقى(الافتراض المسبق).

المطلب الخامس:دلالة تركيب التخييل وطرائق الإقناع(واجبات المؤلف/نمط المتلقى).

المطلب السادس: دلالة تركيب التخييل دلالة موازية لقرينة التلاقح الفكرى.

المطلب السابع: دلالة تركيب التخييل نسق فى ضوابط الاستلزام التخاطبى.

المطلب الثامن: دلالة تركيب التخييل نسق من أنساق البنية الكلية,

المبحث الثانى: دلالة تركيب التخييل وأصول الاعتزال، و فيه المطالب التالية:
المطلب الأول: دلالة تركيب التخييل والاستدلال العقَدى.
المطلب الثانى: نسق دلالة تركيب التخييل وخطاب الجمادات خطاب من يعقل.
المطلب الثالث: دلالة تركيب التخييل وإقناع الصورة.
المطلب الرابع: دلالة تركيب التخييل ومتعة الالتفات من الفكرة إلى الصورة
المطلب الخامس: دلالة تركيب التخييل وقصدية التشارك فى البعد النفسى.
المطلب السادس: دلالة تركيب التخييل وتوظيف طاقة الانفعال لدى المتلقى.
المطلب السابع: دلالة تركيب التخييل وصورة أخرى للمعنى.
الخاتمة، و فيها ما يلى: أهم النتائج والتوصيات، ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

- **مقدمـــــــــــــة:**

ليس من شك فى أن الادِّعاء بأن لتركيب التخييل دلالة نوعية يبدو كيانًا مراوغًا للوهلة الأولى؛ بين كونه لسانًا متكلمًا، يعرض دلالة أخرى للمعانى، من خلال الصورة الناطقة، وكونه إطارًا أجوف، لا يُجاوز الدلالة المنبثقة من القوالب الصرفية والتركيبية؛ لذا فقد لقى تباينًا فى وجهات النظر والرؤى بين التحسين والتقبيح، أوالقبول أو الردِّ، إذ هناك رؤى عديدة تتبنى القول بأن وجوده فى القرآن الكريم ضربُ مُحال، وإنه من بواعث الضعف فى الأساليب الرفيعة.
ويستدل أصحابها بأن كل ما حوى القرآن حقائق، وهو على قمة الأساليب اللغوية الرفيعة، الموصوفة بالضبط والدقة، التى لا يمسُّها التخييل أو الاستعارات، أو غير ذلك من المعانى المُعارة والمُحوَّلة عن أصل معناها لغرض ما؛ إذ إن فى الانحراف إلى تركيب التخييل توهمًا، أو رغبة من مؤلف النص فى تعمية المعنى وإشكاله-بلفظ غريب- أو التمويه على المتلقى فى بحثه عنه والتوصل إليه.
ولا يؤيِّد الباحث هذا الرأى؛ حيث إن من الأقيس وصْف تركيب التخييل بكونه مُزيلًا للتوهُّم، والفساد الدلالى. وباعثًا للمتعة والجمال؛ من دون مبالغة المؤلف فى تكثيفه ضمن العناصر الدلالية للنص؛ فقد يكون انتخاب تركيب التخييل حالة من حالات التسلُّط اللغوى، التى يروم أحد مستخدمى النص استعراض ما لديه من روافد القوة النصيَّة، مرتكزًاعلى أن يتحلى بالبراعة فى رصفها، وحُسن ترتيبها فى هيئة تجعل المتلقى يشعر بالعجز عن اصطياد المعنى، أو يبدو متسرعًا حين يذهب بالتراكيب إلى أنماط من التأويل المذموم، المُجافى للقصد الحقيقى.
من جهة أخرى، فإن هناك من ينظر إلى دلالة تركيب التخييل بوصفها نسقًا تداوليًّا، مقصودًا، يُسعف المؤلف فى احتياطه لمعناه، حين تعجز الكلمات عن الوفاء بمفردات القصد، أو حين تنحرف قدرة النفس عن عرض قصدها " أو حين تكون فيه إشارة إلى خبر، لم يَذكرها قائله على جهته صريحة، أو بالإيماءة إلى خبر لم يُفصَح به، أو يُفتقر العلم به إلى معرفة قصته أو سياقه، أو يكون كلامًا فى غير محدود، بأن يكون المعنى مجملًا غير مفصَّل، حتى يفسِّره المؤلف؛ أو يكون وجيزًا فى نفسه غير مبسوط، أو

تكون ألفاظه مشتركة".([1]) أو أن يكون عرض القصد مفتقرًا إلى روافد الإمتاع، وبواعث الجمال.

لذا يُعدُّ حذقًا للمؤلف اقتدارُه فى التمويه على النفس، وشدة تخيُّله في إيقاع (المراوغة) إليها فى الكلام، ولما كانت النفس مطبوعة على ذلك؛" اشتد ولوعها بالتخيل، وصارت شديدة الانفعال له، حتى أنها ربما تركت التصديق للتخيل، فأطاعتْ تخيلها، وألغت تصديقها".(٢) وهو" صورة يحرص فيها الشاعر- الذى يريد تحقيق قدر من الجمالية العالية -على الإغراب، والابتعاد عن المتوقع؛ لأن النفس الإنسانية لها ولوع بتصور المعانى، وعنايتها بتحصيلها وتفهمها".([3])

التمهيد : ويشتمل على مطلبين: المطلب الأول: الأصول النظرية (فكرة الارتكاز):

يُشير هذا البحث إلى أن محددات نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجانى(ت٤٧١هـ)، كان قوامُها ضبطَ الاستشهاد، والميل إلى التأويل المحمود للمرويات اللغوية، وحُسْن توظيفها فى عملية التواصل مع الخصوم، وتفنيد حججهم؛ أو توفير بيئة عقلية ومنطقية، مؤيدة للمقاصد الجوهرية، ولاسيما النصوص المقدسة، والثابتة، الموثوق بأصالتها وفصاحتها.

وينبغى للباحث أن يُقرَّ بأن عبد القاهر قد مال- نسبيًّا وبتعقل- إلى إنكار القول بوجود تركيب التخييل فى الخطاب القرآنى، إذ الأمر–عنده- قائم على احتمالية أن يقع فى تركيب التخييل كذبٌ، وقد جاء إنكاره –هذا-على سبيل الشيوع، لذا لم يحمل المعانى القرآنية عليه، وبخاصة المتشابهة فى الصفات، والأمثال والقصص، ورأى أنه خداعٌ للنفس والعقل، وبُعدٌ عن الحقيقة، وهو مسوقٌ لإثبات أمر لا واقع له، بينما البلاغة فى الخطاب القرآنى تقوم على الحق والصدق، وقد برز هذا الأمر فى تبويبه لكتابه: الأسرار، إذ كان– نادرًا- ما يقبل صور التخييل، فى تعرضه للأقوال الشعرية.

فقد يُلبس مؤلف النص المعانى ثوب التخييل؛ ليضفى عليها حالة من الصدق، وهى كاذبة، مثلما يفعل المعارضون والخصوم، حين يعمدون إلى القياسات الباطلة، والأدلة المُغالطية، على نحو ما رأينا فى آليات الحجاج فى الفلسفة اليونانية، حيث اعتمدت- فى دفاعاتها - على الأدلة الباطلة، والمقاييس المُغَالطية فى الاستدلالات والمقارعة الجدالية، بُغية تغيير الحقائق.([4])

لذا لم يجعل الاستعارة من ركائز نظريته اللغوية، ولم يعدَّها من أدوات التخييل، إذ تتمحور دلالاتها حول المعنى المكذوب النسبى، لا على المعنى الحقيقى، وأنها تُرى العقل أو القلب ما لا يُرى، يقول:" واعلم أن الاستعارة لا تدخل فى قبيل التخييل؛ لأن المستعير

([1]) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها، لابن فارس، علَّق عليه : أحمد حسن بسبح،ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م: ٤١- ٤٣

([2]) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء صنعة أبى الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٦م : ٧١-١١٣

([3]) المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع، للسجلماسى، تقديم وتحقيق: علال الغازى، ط١، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ١٩٨٠م : ٢٦٧

([4]) انظر: بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، د: الحسين بو هاشم، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة،٢٠١٤م:٢٢

لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك، فلا يكون مخبرَه على خلاف خبره، وكيف يعرض الشك فى أن لا مدخل للاستعارة فى هذا الفن، وهى كثيرة فى التنزيل، على ما لا يخفى، كقوله- عزَّ و جلّ:" قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا". سورة مريم:٤ ثم لا شبهة فى أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال، ظاهرًا، وإنما المراد إثبات شُبَهُه ".(٥)

على الرغم من ذلك؛ فإننا نراها قد شاعت فى كتابيه الأسرار والدلائل، مؤمنًا بأنها تُكسب التراكيب تكثيفًا دلاليًّا، حيث توفِّر لذهن المتلقى دلالتين، إحداهما: الحقيقية، والأخرى المحولة عن أصل الوضع، فتُضيف إلى الجانب المعرفى تصويرًا خياليًّا، يُعين المتلقى على إدراك نقطة التقاطع بين الدلالتين، ومن خلال عمليات التوزيع والترتيب والموازنة والترجيح، يستطيع المتلقى إدراك القصد المراد.وقد أكد الإمام الباقلانى(ت ٤٠٣هـ) معنى الصدق فى التراكيب اللغوية، وما تحمله من دلالات وأخيلة، يقول:" ثم إذا صدق الوصف، انقسم إلى صحة وإتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، وإلى استيفاء وتقريب, وإلى غير ذلك من الوجوه".(٦)

لذا فقد اكتفى عبد القاهر بالتمثيل- لرأيه- من شواهد الأقوال الشعرية؛ تنزيهًا للقرآن من أن يناله تقوُّلٌ أو رأى، ولا نغفل أنه- فى سعيه إلى إثبات رأيه بخلو القرآن الكريم من التخييل- قد أشاد بقدرة التخييل على استدعاء المعانى بصورة دقيقة ومفصلة، وأنه يُعين المتلقى على التذكر لما قد يكون غير حاضر فى بؤرة الذهن أو الوجدان، يقول: وإذا كانت هذه العبرة ثابتة وشاهدة، وما يجرى مجراها ممَّا تناله الحاسة، فالأمر فى القلب، كذلك تجد الجُمل- أبدًا- هى التى تسبق إلى الأوهام، وتقع فى الخاطر أولًا، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها، وتراها لا تحضر إلَّا بعد إعمال للرؤية، واستعانة بالتذكر، وتتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف، ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل، وكلما كان أوغل فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر، والفقرُ إلى التأمل والتمهُّل أشد".(٧) فيترتَّب على هذا تمكين الانفعالات النفسية، وينضم إلى قوة القصد، معنى تصويرى آخر، يحسنه فى نفس المتلقى، ويعينه على إدراكه؛ ويصير تركيب التخييل بمنزلة استدعاء المتلقى إلى فضل تأمل، وزيادة فهم.(٨)

ويكون تركيب التخييل دليلًا على المعنى، ومكونًا جوهريًّا من مكونات الاحتياط للمعنى، وموجهًا للنفس، معتمدًا على قوة الصورة وحيويتها؛ لأن للنفس آلية خاصة فى قراءة المقاصد؛ فى مقابلة احتمالية فساد العناصر اللغوية والسياقية أو ضعفها فى الاحتياط له، أو عرضه إلى المتلقى بهيئة وكمية مناسبتين؛ فقد يفشل العقل فى إدراك المعقولات

---

(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، (د. ط)، مكتبة الإيمان، المنصورة، (د. ت):٣٠١

(٦) إعجاز القرآن، للباقلانى، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٧، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٩م :٢٤٤

(٧)أسرار البلاغة : ٢١٠

(٨) انظر: البرهان فى علوم القرآن، للإمام الزركشى، تحقيق: أبى الفضل الدمياطى، (د. ط)، (مجلد واحد)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م: ٢١٩

المجردة.([٩]) يقوى هذا الأمر الإقرارُ بأن احتياط المؤلف للقصد لا يتوقف عند حد التراكيب النحوية الواقعية؛ إنما يشمل التراكيب غير الواقعية، بل يجعل من الأخيرة تراكيب نحوية متميزة، حيث تعمد إلى إدماج الجمل والصورة ضمن أطر الدلالة الكلية.([١٠]) وقد رُصد فى أسرار عبد القاهر إشارة إلى أن الصورة التعبيرية تخاطب القلب، والدماغ، وأنها سبب للعلم بالأشياء، وأنها تتيح لطاقة التلقى شبهًا معقولًا للمعنى، وتجسيدًا له، وفى هذا الصدد يقول:" وكذلك قول النبى– ﷺ:" المؤمن مرآة أخيه".([١١]) ليس على إثبات المرآة من حيث الجسم الصقيل، لكن من حيث الشبه المعقول، وهو كونها سببًا للعلم بما لولاها لم يُعلم، لأن ذلك العلم طريقة الرؤية، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلَّا بالمرآة، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة، فقد جمع بين المؤمن والمرآة فى صفة معقولة، وهى أن المؤمن ينصح أخاه، ويريه الحسن من القبيح، كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه".([١٢])

<u>المطلب الثانى: روابط فكرية بين التنظير والتطبيق:</u>

يتمثل الرابط بين عبد القاهر الجرجانى والزمخشرى- فى درسهما لأبعاد تركيب التخييل- فى أن كلًّا منهما قد أقام فكرته على المنطقية وتحليل الرأي، وتقديم الحجة، وتفنيد آراء الخصم، بغية استمالته، وزعْزعة ثوابته المذهبية، انطلاقًا من التسليم بالدور الحاسم للمعتقد المذهبى فى صياغه القصد، وتوجيهه، وردّ حُجج الخصم. فقد أدركا قيمته الإقناعية، بيد أن الأول قد تحفظ فى مسألة المبالغة فيه، درأً للادِّعاء بطغيانه فى آيات الكتاب الكريم، وصونًا له من سوء التأويل، وتنزيهًا له من الخضوع لمعبارئ التصديق أو التكذيب؛ وعلى النقيض؛ فقد كثَّف الأخير من استشهاده بدلالة تركيب التخييل، إيمانًا منه بقدرة التصوير على تحقيق ضربٍ من الخيال المتعمق، والإقناع البصرى؛ الذى يرفع درجة الإعلامية النصية، ومن ثَمَّ الثقة فى الخطاب المعروض والإيمان به.

والمتأمل لصنيع الزمخشرى يجد أنه يصرُّ على أن يجعل ذهنية المتلقي ووجدانه يسيران وسط صورتين للمعنى، إحداهما فكرية جامدة، والأخرى تصويرية حيَّة متحركة، تتوازى مع سابقتها، تعضيدًا وتوضيحًا، واحترازًا من سوء الفهم أو التوهم، وكأنه كيان متكلم يجمع بين العقل والخيال، أو ما يُمكن أن نسميه: الخيال المتعقِّل، القائم على التعمُّق

([٩]) انظر: تهافت الفلاسفة، للإمام أبى حامد الغزالى، تحقيق وتقديم، د: سليمان دنيا، ط٩، سلسلة ذخائر العرب، رقم: (١٥) ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٧م: ٢٧٤

([١٠]) انظر: التداولية، مقاصد وآداب، د: صبرى إبراهيم السيد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٩م: ١٤٤

([١١]) ونصه:" أن رسول الله–ﷺ– قال:" المؤمن مرأة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه". وفيه إشارة إلى أن المؤمن كالمرآة المجلوة التى تحكى كل أمارات الوجه، انظر: سنن أبى داوود، كتاب الأدب، باب فى النصيحة والحياطة، من حديث أبى هريرة، حديث رقم : ٤٩١٨، ج٣: ٣٤٤، وفى صحيح البخارى بلفظ:" المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابعه". من حديث أبى موسى، عن النبى– ﷺ- حسن الإسناد، انظر: صحيح البخاري، الإمام البخارى، كتاب الأدب(باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا)، (د. ط)، دار الحديث، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، القاهرة، حديث رقم: ٦٠٢٦، م٤: ١٠٨، ومعناه: إن المؤمن يمنع ضياع أخيه المؤمن، ويمنع هلاكه؛ فيجمع عليه معيشته، ويضمها إليه، ويذبُّ عنه، ويوفر له مصالحه، وهو برقم: ١٠٤ (باب: المسلم مرآة أخيه)، انظر: صحيح الأدب المفرد، للإمام البخارى، بقلم: محمد نصر الدين الألبانى ، ط٤، مكتبة الدليل المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م:١٠٧

([١٢]) انظر : أسرار البلاغة : ٣٠١

البصرى والذهنى. بيد أن عبد القاهر- وإن مال إلى توظيف دلالة التخييل فى مواضع قليلة- قد أقام فكرته على الحقيقة، والاستدلال عليها بالتحليل وإيراد الأدلة المنطقية؛ فى حين أننا نجد الزمخشرى- وإن راغ إلى العقل- قد كثَّف من البراهين، واستعان بالتخييل فى تمكين المعنى، ورأى أن الدلالات المشاهدة تعد رافدًا أكثر إحاطة به، وأقدر على إقناع الخصم، وإمتاع المؤيدين. لذا فإن تركيب التخييل، بوصفه تركيبًا لفظيًّا ذا بعد دلالى، يُعد من الأدوات المعنوية فى عرض القصد، والاحتياط له، من فيوض غيره من الدلالات المحتملة، التى تجد سياقات تؤيدها، تلك الأداة تحملها هيئة القوالب اللغوية المتراصة والمتحركة، خضوعًا لقانون الرتبة المحفوظة، أوالتذاذًا بجماليات الرتبة المحولة، بطريقة عدولية، أقرب إلى الانتقاء، تنقل ذهنية المتلقى من ضيق المعنى، المتجسد فى التسطيح إلى رحابة التفصيل المسوق، لتحصيل معنى ما، شاملًا التباين النمطى بين صنوف القرَّاء للنص الواحد.

وإذا ما أراد الباحث التمثيل لوجود فكرة استثمار دلالة تركيب التخييل، وما تقوم به من دور حاسم فى عرض المعنى، فى فكر عبد القاهر الجرجانى، صار حريًّا به أن يقرَّ بأن عبد القاهر قد رصد معطيات التخييل وأبعاده، وألزم نفسه بدراستها فى الشعر خاصة، كما أدرك أن تركيب التخييل هو روح الشعر، إذ هو مرتكز على العواطف والصور، وقد درسه برؤية فكرية عميقة، وبمرجعية دينية وأخلاقية، تواكب معتقد أهل السنة. وقد عُنى الرجل بما يُسمى: نظرية الدلالة التخييلية، وجعل لها أصولًا، أبرز فيها علاقة تركيب التخييل بالفعل اللغوي، بوصفه فعلًا كلاميًّا، يقع بين دوائر الفعل المضمَّن والفعل السلوكى. كما أدرك دوره فى تحقيق البعدين المعرفي والجمالي للتراكيب اللغوية الحاملة للمقاصد، إذ إنّه يمتلك مراوغة الدال والمدلول، مع الاحتياط للقصد، وفيه إبراز لقدرة المتكلم على استثارة ذهن السامع، بقوله: "هو الذي لا يُمكن أن يُقال: إنه صدق، وإن ما أثبته ثابتٌ، وما نفاه نفيٌ - وهو مفتنّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصر إلَّا تقريبًا، ولا يُحاط به تقسيمًا وتبويبًا".([١٣])

فهو-بذلك- يُشير إلى التصاعد الدلالى وارتفاع درجة التداولية من خلال تركيب التخييل، بيد أنه يقرّبه- فى مجمله- من حدِّ الإبهام، لا حدِّ التحصيل والإحكام، وأن تركيب التخييل- فيما مثَّل له- دلالته كالسيل، لا يثبت إلَّا إذا حصل فى موضع، له جوانب، تدفعه إلى الانصباب، وتمنعه عن هذا الانسياب.([١٤]) وقد اشترط عبد القاهر أن تحمل تراكيب التخييل محتوى دلاليًّا صادقًا، يجمع فيه المؤلف- إلى صدقه- معيار مراعاة الذوق وتوفر أبعاد الجمال([١٥])، بالإضافة إلى كوْن مضمون الخبر فيها مطابقًا لشكله، فى هذا الموضع تتصاعد العلاقة التبادلية بين المؤلف والمتلقى؛ وترتفع درجة الإعلامية التواصلية بينهما، فقد جمع المؤلف إلى حقيقية المعاني بواعث إمتاع المتلقي من خلال دلالة تركيب التخييل، وكأنه يوازن بين الفكرة التى تعكسها العناصر اللغوية، والصورة التى تجسدها

([١٣]) انظر: أسرار البلاغة : ٢٩٦

([١٤]) أسرار البلاغة : ٢٩٦

([١٥]) انظر: تنبيه الإمام الزركشى أن مقامات الكلام لا تُدرك إلَّا بالذوق، البرهان فى علوم القرآن :٤٠٠

التراكيب التخييلية، يقول: " تزيد قدْره نبلًا، وتُوجب له-بعد الفضل- فضلًا، وإنك تجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، خلابة مرموقة".([١٦])

وعلى الرغم من اشتداد تحفُّظ عبد القاهر حول وقوع تركيب التخييل في الخطاب القرآني، فإننا نجد- في كتبه- إطراءً على تصرُّف التخييل، ومن ذلك، قوله:" واللفظ يُشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسها، بل من جهة حكم وأمر يقتضيه؛ وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذَّة، والحالة التي تحصل في النّفس؛ إذا صادفت- بحاسة الذوق- ما يميل إليه الطبع، ويقع منه بالموافقة، وصفة تتجدد في النّفس بسببها، وأن القصد أن يُخبر بأن السامع يجد-عند وقوع هذا اللفظ في سمعه- حالة في نفسه شبيهة بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوة من العسل، حتى لو تمثلت الحالتان للعيون، لكانتا تُريان على صورة واحدة، ولوُجدتا من التناسب على حدِّ الحمرة من الخدّ للحمرة من الورد".([١٧]) وعلى الرغم من احتفائه بالمعايير النحوية؛ فإنه يقر بأن تركيب التخييل يأخذ دلالة أخرى من دلالة اللفظ، لذا فهو أخذُ شبه من شيء؛ بالإضافة إلى كونه يوفِّر دلالة محسوسة ومشاهدة؛ لمعنى يُعلَم، ويعقل، وأنه يُعد مقاربة الصورة العقلية بالدلالة البصرية التصويرية.([١٨])

فيذكر أن تركيب التخييل يُسهم في تصحيح المعنى، وعرضه بكمية، وهيئة، ومقدار؛ بمقاربة تأويلية من لدن المتلقي، بعيدًا عن الاكتفاء بإحاطته بمجرد العبارة، التي لا تحيط ببيان مقداره، يقول:" إنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة، التي تؤديه، وتبالغ، و تجتهد؛ حتى لا تدع في النفوس منزعًا، نحو أن تقول، وأنت تصف اليوم بالطول: يومٌ كأطول ما يُتوهَّم، وكأنه لا آخر له".([١٩]) يقول- في باب اللفظ والنظم- بأن التخييل" فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، وإذا فعلوا ذلك؛ بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تُعجز الوصف، ورأيت هناك شعرًا شاعرًا، وسحرًا ساحرًا وبلاغة لا يكتمل لها إلَّا الشاعر المُفْلق، والخطيب المُصقع، وكما أن الصفة؛ إذا لم تأتك مُصَرَّحًا بذكرها، مَكْشُوفًا عن وجهها؛ ولكن مدلولًا عليها بغيرها([٢٠]) كان ذلك أفخم لشأنها، وكذلك إثباتك الصفة للشيء، تثبتها له؛ إذا لم تُلْقها إلى السامع صريحًا، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة؛ كان له من الفضل والمزيَّة، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يُجهل موضع الفضيلة فيه".([٢١])

([١٦]) أسرار البلاغة : ١٠٤،١٠٨

([١٧]) أسرار البلاغة : ١٥٢ - ١٥٣

([١٨]) انظر: أسرار البلاغة:١١٧،١٢١- ١٢٣

([١٩]) أسرار البلاغة: ١٧٨

([٢٠]) في إشارة إلى تلك الدلالة الموازية بانتقال ذهن المتلقي من دلالة الكلمة إلى دلالة الصورة.

([٢١]) انظر: دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر،(د. ط)، مكتبة الخانجي، ومطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٤م: ٣٠٦

حيث إن فى إمداد تركيب التخييل لذهن المتلقى بعنصر آخر للدلالة ما يجعل قصدية الاحتياط للمعنى، والتمركز حول مفرداته، وتوضيحه؛ يسهُل تحقُّقُها، ويجعل المعنى الضمنى أقرب إلى التوقّع، والتوصُّل إليه؛ أكثر من وصفه من خلال العناصر اللغوية المجردة؛ بالإضافة إلى ما يقدمه تركيب التخييل من دلالة الرمزية، الموصوفة بالجمال، تلك الدلالة تصير أكثر اتِّساعًا، فيعبر تركيب التخييل عن الدلالات المدمجة، التى يتحقق جمالها من الربط-بالصورة- بين المتلقى والقصد؛ تلك الدلالة التى تعين المتلقى– من خلال الإحالات إلى دلالة الصورة، أو تصوير المعنى عيانًا([٢٢])- إلى استخلاص المعنى، واستنتاج القصد حسب محدداته هو، نمط تلقٍّ، وأفق انتظار، وسياق قراءة؛ وليس حسب ما يسوقه المؤلف من مفردات المراوغة الدلالية، التى يقصد بها الاحتياط لمعناه.([٢٣]) هذا يقوده إلى إدراك ما فى ذهن المؤلف من خبر، باستخدام الأشكال اللغوية، مع دلالة التصوير المجسَّدة فى تركيب التخييل.

ويعد الاحتياط للمعنى-عنده- واجبًا من واجبات المؤلف، فى سبق لما يُنادى به الطرح التداولى، فيجعل تركيب التخييل مما ليس فيه زيادة عن الكمِّ المعلوماتى المطلوب للخبر، حيث يُدرك أن تكوُّن المعنى يتحقق فى النفس والعقل؛ لذا يُلزم المؤلف بأن يُخرج عناصره القصدية فى صورة تؤثر فى النفس، وهذا ما يُحققه تركيب التخييل، حيث إنّه يكسو المعنى لباسًا جديدًا؛ ويستولى على قوى النفس عن طريق إلباس المعاني المتأدية إليها؛ ثوبًا من الخيالات؛ بعد تلوينه باللون، الذي يريده الشاعر تبعًا لغرضه. ([٢٤])

وفيما يخصُّ مبدأ الهيئة؛ فليس من شك فى أن الدلالة التصويرية، بوصفها تجسيدًا للمعاني، ونقلها من الحالة الجامدة ومغايرتها إلى دلالات تتحرك، وتلتصق بالدماغ والنفس من خلال المُشاهدةً، مما يُكسب المعنى أثرًا أعمق فى النفوس، فتتكثف المعانى، وتتعدد روافدها؛ ويكونَ حضورها في ذهن المتلقّي أقوى، ووقعها عليه أشدّ، وأثرها فيه أعمقُ. إذ إنّ الحقيقة المجردة عن التخييل لا تأخذ من نفس السامع مأخذًا، ولا تترك فى قلبه أثرًا؛ لأنها تظل عارية غير مؤثرة، حتى تكتسي برودًا من الخيال قشيبة، تمتلك المسامع وتجتلب القلوب. ([٢٥]) من ذلك ما ذكره، فى: فصل: فى مواقع التمثيل وتأثيره؛ بقوله:" لو أنّ رجلاً أراد أن يضربَ لك مثلًا في تنافي شيئين، فقال: هذا وذاك هل يجتمعانِ؟. وأشار إلى ماءٍ ونارٍ؛ وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبركَ بالقولِ: هل يجتمعُ الماءُ والنّارُ؟ وذلك الذي تفعل المشاهدةُ من التَّحريكِ للنّفسِ، والذي يجب بها من تمكّن المعنى في القلبِ إذا كانت مستفادةً من العيانِ ومتصرّفةً، حيث تتصرّف العيانُ".([٢٦]) يكون من المترجَّح -إذن-الإشارة إلى أنه قد جعل من

([٢٢]) انظر المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ج١: ٧٨ -٧٩

([٢٣]) انظر: التداولية، مقاصد و آداب: ٦٥ و ١٠٧

([٢٤]) انظر: الخيال فى الشعر، السيد محمد الخضر حسين التونسى، مكتبة العربية، دمشق،١٣٤٠ هـ/١٩٣٢م:٧٠

([٢٥]) انظر: النظرات، المنفلوطي، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م: ١٨٨

([٢٦]) أسرار البلاغة : ١٧٨

تركيب التخييل آلية من طرائق تثبيت المعنى، وأن ثمة فارقًا بين خبر وآخر، حيث أشار إلى أن كل قالب صرفى-وكل تركيب- يحمل دلالة نسبية من المعنى؛ لذا ألزم المؤلف بأن يعرض قصده فى هيئة تركيبية منتقاة؛ مؤكِّدًا وجود دلالة حسية فى التراكيب الخبرية، تزداد قوتها فى تراكيب التخييل؛ بوصفها من الآليات التى تُفيد فى الخبر، يقول:" فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد، فعلًا له، من غير أن تجعله يتجدَّد، ويحدُث منه شيئًا فشيئًا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويلٌ"، و"عمرو قصير"، فكما لا تَقْصِد –ههنا- إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدَّد، ويحدث، بل تُوجبهما وتُثْبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق؛ كذلك لا تتعرض في قولك: زيد منطلق؛ لأكثر من إثباته لزيد".[٢٧]

ويظل تركيب التخييل- فى نظرية النظم- مقربًا للمعنى، وكأنه صورة أخرى غير مباشرة له، فقد أسقط المؤلف على ذهن المتلقى صورة أخرى؛ فيجعله لا يفقد صفة الحسِّية، بيد أنها صورة تروغ-كثيرًا- إلى المنطقية والتعقل، ومهما تباعدت تلك الصورة، وجرَّت المتلقي إلى أنساق جزئية-فى ضوء مبادى المدرسة البنيوية- فإنها تظل مرتبطة بالمعنى الأول، وتآزره بصورة حيوية من عالم الحس، كما أنها لا يُمكن لها أن تبتكر معنىً جديدًا على سبيل المغايرة الدلالية، فكل ما يصل إليه المتلقي، من خلال تركيب التخييل لا يُمكن تشكيله أو التعبير عنه إلَّا من خلال جزئيات وعناصر أدركها العقل والحس من قبل.([٢٨]) وفى هذا المعنى يقول الحاتمى(ت ٣٨٨هـ):" أبدع ما قيل في التتبيع: هو أن يُريد الشاعر معنى، فلا يأتى باللفظ الدال عليه، بل بلفظ تابع له؛ فإذا دلَّ التابع، أبان عن المتبوع، وفى هذا إشارة إلى كوْن تركيب التخييل كيان لفظى متكلم تابع للمعنى المركزى، فقد يعجز العنصر اللغوى الخاص بالمعنى عن الوفاء به؛ فيأتى بتابع له، يدل على المعنى.([٢٩])

يصبح من الجدير ذكره القول: إنه ليس صحيحًا الادِّعاء بمغالاة عبد القاهر الجرجانى فى إنكار وقوع تركيب التخييل فى الأساليب اللغوية الرفيعة، بل يبدو أنه كان على النقيض، فقد رُصدت تعبيرات له تثبت ولعه به، يجوز- بها- أن ندَّعى سبْقه ، انظر إلى افتتانه بالغريب الممتع من المعانى، الذى يصف صاحبه بالمبدع، وقد جعل غرابته فى مخالفته للمألوف من الاستعمال، وامتناعه إلَّا على الحذَّاق، وقلة وجوده، مقرًّا بأن هذا الغريب النادر يحتاج- فى دلالته الكلية- إلى بيئة، وحجة، وإثبات؛ فهذه الأمور قوالب ناطقة، تستطيع إدارة عملية تواصلية ناجحة، ونظير ذلك- عنده- أن ينفى المؤلف عن فعل من الأفعال- التى يفعلها الإنسان- الفائدة، ويدَّعى أنه لا يحصل منه على طائل؛ ثم يمثله فى ذلك بالقابض على الماء، والراقم فيه، فالذى مثَّلت ليس بمنكر مستبعد.([٣٠])

([٢٧]) دلائل الإعجاز:١٧٣ –١٩٨، وانظر: أسار البلاغة: ٣٤٠

(٢) انظر: النقد الأدبي (قراءة التراث النقدى)،د: جابر عصفور، ط١،دارالكتاب المصري، القاهرة،٢٠٠٩م:٢٤٤

([٢٩]) انظر: حلية المحاضرة فى صناعة الشعر، لأبى على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى، تحقيق،د: جعفر الكِتابى، دار الرشيد ، سلسلة كتب التراث، (٨٢)، وزارة الثقافة و الإعلام، العراق، ١٩٧٩م، ج١: ١٥٥

([٣٠]) انظر: أسرار البلاغة : ١٧٥

حتى أنه لَيُعد سابقًا للنظرية التوليدية التحويلية، فى قوله بضرورة أن يسوق المؤلف معناه فى هيئة تتابعات دلالية، تتجاوز حدَّ الصوت المفرد الدال على معنى([٣١])، فى هيئة أقل عناصرها يتكون من جملة نواة، تتركز دلالتها على وصول المعنى إلى العقل، تم تتوالد معانٍ أخر؛ فقد توفر التراكيب التخييلية للمتلقى معانى، تُستكشف بالعيان، أو بالحس؛ وإن وفَّرت القوالب اللغوية للمتلقى دلالة تامة؛ فإنها تفتقر إلى تلك الدلالات التى تتوفر من خلال المشاهدات والمحسوسات، بمقدار حرص المؤلف على بلاغه، ونمط التلقى، وسياقات التفسير.([٣٢])

فمن المعلوم اختصاص المدرسة البنيوية التفكيكية بدراسة الأنساق الجزئية، التى تتشكل منها الأنساقٌ الكلية، والعكس؛ هنا تبرز الدلالة التخييلية للأنساق الصغرى من القوالب الكلامية؛ إذ تستطيع هذه النوعية من القوالب غير الكلامية نقل الدلالات والمقاصد إلى المتلقى؛أو إحداث المغايرة الدلالية، استئناسًا بالقرائن المصاحبة، اللفظية والمعنوية؛ حيث يتحقق للتخييل دلالة، بمقدار لا يصلح أن يعبِّر عن الدلالة الكلية، أو القصد؛ بيد أنه يستدعى إلى الذهن دلالات نوعية، تُعين المتلقى على إدراد المحتوى الجوهرى؛ وقد أشار ابن فارس(ت ٣٩٥هـ)، فى باب القول فى حقيقة الكلام، إلى هذا المعنى؛ حيث أكد" أن الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى، وهو ما سُمع وفُهم".([٣٣]) وكما أن ابن الأثير(ت ٦٣٧هـ)- بعد أن ذمَّ البداوة والعنجهية والحوشية والغرابة فى الألفاظ؛ واصفًا المستخدم لها بأنه من أمة قد خلت، وأنه قد عيب عليها استعمالها، وأنها ضرب من أضرب الجفوة- فى المقالة الأولى، فى الصناعة اللفظية، فى اللفظة المفردة، الحروف المفردة الدالة على المعنى، يقول:" وبعد هذا؛ فاعلم أن الألفاظ تجرى فى السمع مجرى الأشخاص من البصر؛ فالألفاظ الجزلة تُتَخيَّل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيَّل كأشخاص ذى دماثة ولين أخلاق، ولطافة مزاج؛ ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا([٣٤]) سلاحهم، وتأهبوا للطِّراد؛ وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان، عليهن غلائل([٣٥]) مُصَبَّغات، قد تحلين بأصناف الحلى".([٣٦]) وكذلك القاضى الجرجانى(ت٨١٦هـ) إلى هذا المعنى، وذكر أن المتلقى قد يجد الألفاظ فى صوت المؤلف ونغمته، أو فى جرسه ولهجته.([٣٧])

([٣١]) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية:٨٣

([٣٢]) انظر: التداولية ، مقاصد وآداب: ١٤٤

([٣٣]) الصاحبى فى فقه اللغة العربية : ٤٧

([٣٤]) أى: لبسوا اللأمة، بفتح اللام، وسكون الهمزة: هى الدرع المحكمة الملتئمة.

([٣٥]) وهى: جمع غلالة، وهى : شعار يلبس تحت الثوب.

([٣٦]) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ضياء الدين، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج١: ١٨١

([٣٧]) انظر: الوساطة بين المتنبى وخصومه، للقاضى على بن عبد العزيز الجُرجانى، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلى محمد البجاوى، (د.ط) طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م: ١٨

والتوليدية التحويلية كيان لغوى تشكلت مبادؤها، وتبلورت أفكارها فى ضوء الاستعمال اللغوى؛ وأن الاعتماد- فى تفسير القوالب والتراكيب-إنما يتحدد بموقعيتها داخل التركيب، وعلاقتها بغيرها من العناصر اللغوية، وكذلك على سلوك السامع، وعلى توجُّه أفق انتظاره تجاه هذه الكلمة أو التركيب.([٣٨]) ولقد عقد العلامة ابن فارس فصلًا أشار فيه إلى خاصية التوالد التى تُنادى بها المدرسة التوليدية التحويلية، أسماه: باب القول على أن لغة الغرب لم تنته إلينا بكليتها، (باب القول على لغة العرب، هل لها قياس، وهل يُشتق بعض الكلام من بعض)، ذكر فيه أن للغة العرب قياسًا، وأن العرب تشتق الكلام من بعض، بعيدًا عن اللحن، والانحراف، وبطلان الدلالة؛ مشيرًا إلى ما يقع بين العلماء من التباين، حول الخبر والحقيقة، والاحتمال والإمكان.([٣٩])

ما يعنينا- هنا- أن المدرسة التوليدية التحويلية تقر بأن العناصر اللغوية تُنتج معنى؛ قد يبدو ضعيفًا، وأن المعول يكمن فى امتلاك المؤلف لملكات الكفاءة وتحسين الأداء؛ وقدرته على فى إنتاج أعداد غير منتهية من الجمل والدلالات؛ بالإضافة إلى المخصصات(المقيِّدات) الكلامية، مُتَّخذًا من الجملة النواة، التى يُعرف بها أصل القصد؛ سبيلًا لإنشاء جملٍ أخرى، تشكل أنوية أخرى، ويقع على كلِّ نمط منها عبء التعبير عن معنى نوعى، يرتبط- بصورة من الصور- بالمعنى الذى تُشير إليه الجملة النواة. فمقادير العقل تختلف، وتتفاوت، فيتحقق- من خلال تركيب التخييل- زيادة فى حدود الدلالة، حتى أن المتلقى إذا رجع إلى ما يُبصر، ويُحس؛ تعرَّف حقيقة المعنى، كما أراده المؤلف، وليس كما تعرضه البنية السطحية للعناصر اللغوية. يقول عبد القاهر:" إن الأنس الحاصل بانتقالك فى الشىء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر؛ ليس له سبب سوى زوال الشكِّ والريب".([٤٠]) يتحقق ذلك حين تتكيف التراكيب- التى نستعملها- فى التعبير عن الأغراض، التى نرغب من أجلها فى استخدام اللغة.([٤١])وإننا-حين نتأمل فكرة الحجاج التداولى القائمة فى فكر الزمخشرى علي استثمار المؤلف لدلالة تركيب التخييل- نجده قد أضاف إلى الأصول القاهرية بُعدًا آخر، تمثل فى ضرورة امتلاك المُحاجج لملكة الجدل الممنهج، التى تقود إلي التشكيك فى الثابت، وطرح الاستدلالات وبراهين الإقناع، ومن ثَمَّ يكون الاقتناع، وقد قيدها الزمخشري بحالات الضرورة، حين تكون لإظهار التلطف لأرباب البعد العقائدي الواحد، أو تكون من باب المجافاة حين تكون لردِّ الخصم، وإلزامه الحجة العقلية وأحيانًا المنطقية؛ يقول الزمخشري:" وما أقبح التقليد والقول المتقبَّل بغير برهان".([٤٢]) وكأنه يستعين بدلالة تركيب التخييل فى استحضار صورة المعنى بجميع

([٣٨]) انظر: من المدارس الألسنية، المدرسة التوليدية التحويلية، د: إبراهيم محمد إبراهيم محمد عثمان، نسخة pdf، بحث على الشبكة العنكبوتية،cte.univ-setif2.dz/moc : ٢

([٣٩]) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية:٣٦

([٤٠]) أسرار البلاغة : ١٧٧

[٤١] انظر: التداولية، مقاصد و آداب : ١٤٦

([٤٢]) انظر: الكشاف، الزمخشرى، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمادى،ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م ،ج٤: ١٥٠

عناصرها، ويستدعيها إلى موقف التواصل، ويمنحها حركة ودلالة، ويجعل لها من القوة ما يفوق قوة القوالب الشكلية، صعودًا وهبوطًا، ويكون ذلك الاستحضار مليئًا بشحنات انفعالية، تقرّب المعنى من الصحة، وتدفع الذات المتلقية نحو الإذعان للتركيب وقبوله, وقد أدرك أن قوة تركيب التخييل تتمثل فيما يأتى أنه:

- **يوفِّر صورة أخرى للمعنى، وهى صورة غير مخزَّنة فى ذهنية التلقى.**
- **يوفر لطاقة التلقى انفعالًا نوعيًا نحو مضمون القوالب، والتراكيب والسياق.**
- **يمنح المتلقى شحنات من الإمتاع أو النفور نحو مضمون القوالب الشكلية، ولعل لهذا البعد النصيب الحاسم فى عملية الاقتناع، بتفاعل المتلقى مع صور تركيب التخييل، وتجاوبه مع الحسيات التى تُلقيها دلالته فى ذهن المتلقى.**
- **تُسهم دلالة تركيب التخييل فى معاونة المؤلف فى تمركزه حول معناه، ليرى المتلقى " المعنى فى صورتين، أو ليتضح المعنى بعد إبهامه؛ أو ليكون بيانه بعد التشوف إليه، لأنه يكون ألذَّ للنفس، وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها".([٤٣]) ويكون تركيب التخييل تذييلًا لدلالة القوالب اللغوية.([٤٤])**

وقد بدا الزمخشرى متأثرًا بسلفه، فى تقعيده لكوْن دلالة التخييل صورة أخرى من صور المعانى، يقول عبد القاهر:" وكان لهذه الزيادة-التى زادها- حظٌّ من الدقة، تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل، وإن قلنا: إن هذه الزيادة- وهى إفادة هيئة السيوف فى حركتها-إنما أتت فى جملة لا تفصيل فيها؛ فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم فى النفس إلَّا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة، وذلك أن تعلم أن لها- فى حال احتدام الحرب، واختلاف الأيدى بها فى الضرب-اضطرابًا شديدًا وحركات مسرعة، ثم إن لهذه الحركات جهات مختلفة".([٤٥]) ويتحقق للزمخشرى-ما يُشير إليه الإمام الزركشى(ت٧٩٤هـ)- إلجامُ الخصوم بالحجة، إذ أُحتُج على المعنى المقصود، بحجة عقلية منطقية، تقطع المعاند له فيه؛ ويصبح المعنى- بالإعادة- أدخل فى الإمكان من كونه دون تركيب التخييل، كما أنه لا يُمكن-فى ذهن المعاند- تصديق خبر البعث، من دون إحياء الموتى.([٤٦])

ويصبح من الواجب الإقرارُ بأن الزمخشرى قد توسَّع فى هذا الأمر، إذ استوعب جماليات تراكيب التخييل، حيث شكَّل أيدلوجية خاصة تجاه تركيب التخييل، فذكره بمصطلحاته جميعًا، فذكر التجنيس، والكناية، والاستعارة، وأبرز دوره الحاسم فى عمليات العرض والتجميل والإقناع، بل جعل معظم تحليلاته مختصَّة بالتخييل، حتى طغى هذا المصطلح؛ بأبعاده وتفريعاته، ولعل مرد احتفائه إلى إدراكه أن لتركيب

([٤٣]) البرهان فى علوم القرآن : ٦٠٠

([٤٤]) والتذييل: أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل فى معنى الأول، تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه؛ أو ليكون معه كالدليل؛ ليُظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه. انظر: البرهان فى علوم القرآن : ٦٦٤

([٤٥]) انظر : أسرار البلاغة : ٢٢٠

([٤٦]) انظر: البرهان فى علوم القرآن: ٩١٣-٩١٤

التخييل قوةً فى عرض المضمون وتصويره، فأحسن توظيفه فى خدمة الأصول الاعتزالية، التى يدين لها؛ لإدراكه دور الصورة فى التأثير على العقول والنفوس، وفى نقل المعانى من عوالم اللامتوقع إلى عالم الواقع والممكن، وجعل ذلك آلية حاسمة فى الوصول إلى المعانى، وإبراز جماليتها، ليستميل المتلقى نحو معنى يقصده، ويقرّب إليه نمطًا من التأويل، تتضمنه ضوابط الاعتزال، فيقتنع بما دسَّـه، بل يتفاعل معه.([٤٧])

وإذا كان عبد القاهر، قد وجَّه حجاجه إلي ذوات شاهدة، بهدف استمالة الخصوم والمعارضين، وردِّ شبهاتهم([٤٨])، فإن الزمخشرى- بالإضافة إلى أنه قد حاجج معارضين حاضرين- قد زاد فى هذا الشأن، حيث عرض آراءه، ووجَّه خطابه إلي معارضين افتراضيين، وتوقع حجاجهم وحججهم، وشرع يناظرهم ويفندها، ويعرض حججه، منتصرًا لها، طارحًا الأدلة المنطقية والبراهين المؤيدة والأقيسة العرفية أحيانًا، بالإضافة إلى الأسئلة المقدرة، التى ألزم نفسه بالإجابة عنها؛ ليصل- بمتلقيه- إلي برِّ اليقين، ويصل بخصومه إلي الشك في ثوابتهم، ومعتقداتهم، ليستقطبهم إليه، داسًّا لهم أصوله المعتزلية فى تحليلاته؛ متخذًا من قوة الدلالة الحادثة من تركيب التخييل، ونجاعته فى نقل صورة المعنى فى إقناع الخصوم؛ وكأنه يُصعِّدهم سُلم الاقتناع، من خلال آلية الاحتياط بالاستدراج، ويدفعهم إلي التخلي عن قناعاتهم، محمِّلًا كل قول فعلًا مضمَّنا، يبغى تحويله إلى فعل سلوكى منجز، مستندًا إلى أفق الانتظار والتلقى، وآلية التشكيك، وطاقة الاستيعاب والانفعال لدى متلق هو يقصده، ويعلم أبعاد ذهنه ووجدانه.

<u>الفصل الأول:(الجانب النظرى) مصطلح دلالة تركيب التخييل فى فكر الزمخشرى:</u>

(ضبط الدلالة واستقرار المصطلح)، ويتضمن ثلاثة مباحث، هى:

<u>المبحث الأول : مصطلح دلالة تركيب التخييل (ضبط الدلالة) وفيه مطلبان، هما:</u>

<u>المطلب الأول: الدلالة المعجمية للتخييل عند الزمخشرى:</u>

تُثبت القراءة المتفحصة لمعجم أساس البلاغة أن صاحبه قد أدرك أن التخييل هو استحضار فكرى وبصرى لمحاكاة نفسية، وأن فيه عرضًا لحقائق المعنى، كما هو فى دواخل النفس، حتى أنه قد تتحقق الصورة التعبيرية فى إبانة المقاصد بالصمت، أو حديث الاعتبار، وفى كل صورة تُعين المتلقى على إدراك كنه الأشياء. يقول:" وهو من: افعلْ ذلك على ما خُيِّلت، أى: ما أرتك نفسك، وتشبهت، وأوهمت".([٤٩])

يبرز- من خلال كلامه، ووفق المبادئ التوليدية التحويلية-التباين الشكلى فى وجود التقارب الدلالى، بين الجملتين النواة والمولدة، فيكون تركيب التخييل جملة مولدة، تتمحور حول

([٤٧]) كما فى تعرضه لتفسير قوله- تعالى: " يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهم". سورة الفتح، الآية:١٠، فقد أشار إلى أن قوله- تعالى:" يد الله". أنها ليست يده، إنما كنَّى عنها بيد رسوله- ﷺ؛ إذ لا تدين المعتزلة بوجود جارحة لله – تعالى- وهو- تعالى- منزَّهٌ عن صفات الأجسام، وقد أعانت دلالة تركيب التخييل فى وصول المعنى إلى المتلقى، وفيها تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول، كعقده مع الله- تعالى. انظر: الكشاف،ج٤: ٢٩١

([٤٨]) انظر: المقتصد فى شرح التكملة، لعبد القاهر الجُرْجَانِى، تحقيق، د: أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الدويش، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة الرسائل الجامعية، رقم: ٧٨، فهرسة: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م،ج١: ٤٦ وما بعدها

([٤٩]) أساس البلاغة، الزمخشرى، ط١، دار صادر، بيروت، مادة: (خيل).

تكثيف المعنى الأصلى، بعيدًا عن قصدية التباديل والتوزيع التى ينتهجها التوليديون؛ حيث تتوجه الجملتان، نحو المعنى العميق؛ الذى دفع المؤلف إلى إنتاج خطابه، الذى يجوز أن يتحقق فيه اختلاف فى الشكل، على الرغم من أن الجملتين ترجعان إلى معنى عميق واحد.([٥٠])

وهذا معناه أن الزمخشرى كان مُدركًا للقوة الدلالية والإقناعية المتأتية من مراوغة تركيب التخييل، وكأنه واقع بين حقيقة مجردة، مدار الحكم عليها منوط به العقل والمنطق، وأخرى متحركة، منوط باستشراف أبعادها محددات النفس، وسياقات التواصل، ومعنى هذا أنه قد غدا هناك آلية تخاطب الوعى والدماغ، وأخرى تُخاطب الحُلم، والنفس، وما وراء الأبعاد النفسية، من خلفيات وتطلعات، مما تُشير به السياقات إلى الذات الحاضرة المشاهَدة أو الافتراضية. وفيها يُقسر العقل والنفس على استدعاء صورٍ أخرى للمعنى، سواء اتُّصفت بالواقعية، أو لم يكن لها حيزٌ من الواقع، إذ المعانى تُتَصيد بالسياق، بسبب خصوبة مدلولات الألفاظ([٥١])، بل قد يلجأ مستخدما الكلام- فى ضوء السياق- إلى رفض محددات الافتراض المُسبق.

فى هذا الموضع؛ يُقال: إن تركيب التخييل-عند الزمخشرى- قد شكَّل ضربًا من التصوير للمعنى، أو خداعًا جميلًا، له قصدان، أحدهما: دلالى، إذ يسلط الضوء على القصد، ويعمد إلى توضيح دقائقه، وتمكينه فى العقل، وإثباته فى النفس، والآخر: جمالى، حيث يعمد إلى الكشف عن المعنى المضمَّن؛ بإيقاع الجمال فى النفس والقبول لدى ذهن المتلقى. ويغلب على الظن أن هذا الأمر مقصود، يهدف به مؤلف النص إلى صنع أعداد متوالية من الصور الجزئية والشبيهة بالمعنى الأصلي، والتى ترتبط بمضمون القوالب اللغوية بعلاقة ارتباط الفرع بالأصل، يرُوم مؤلف النص-بذلك الصنيع- إحداث تأثير فى ذهن المتلقى ونفسه، وحضِّه على التفاعل مع القصدية المركزية، واستئناسًا بالدلالات الهامشية المحتملة للنص، واستمالته لما يُراد منه.

<u>المطلب الثانى: الأبعاد الدلالية لتركيب التخييل فى فكر الزمخشرى:</u>

نحا الزمخشرى بدلالة تركيب التخييل منحًا فكريًّا عقائديًّا، وأكَّد أن له قوة نفسية، تُعين فى بيان المقاصد، وتوضيح المعانى، كما أيقن أن له دورًا حاسمًا فى نقل المحسوس إلى المعقول، وتقريب المعانى التى تُستغلق على العقل، والتى تغيب عن حيز الذهن أو الشعور، فيما يخصُّ الترويج لحجية مذهب الاعتزال، وأنه موصوف بالمنطقية والبعد عن الكذب؛ فذهب إلى أن التخييل آلية يُصار إليها بغية الكشف عن المضامين الكلامية، وصرف الذهن عن التوهُّم، والإسهام فى جعل الشيء المتوهَّم حاضرًا مشاهدًا، وأن المعنى المتخيَّل يتساوى مع المعنى الحقيقى، بعيدًا عن الجدل.

يقول، فى قوله- تعالى:"وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**".**سورة

([٥٠]) انظر: من المدارس الألسنية، المدرسة التوليدية التحويلية:٥

([٥١]) انظر: البرهان فى علوم القرآن: ٢٠٤

الكهف:٤٥:"**المراد: قلة بقاء زهر الدنيا، كقلة بقاء الخضرة، فإما أن يُراد تشبيه الأفراد بالأفراد، غير منوط بعضها ببعض، ومصيَّرةٍ شيئًا واحدًا فلا؛ فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شُبِّهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طُفئت ناره، بعد إيقادها فى ظلمة الليل، وكذلك من أخذته-فى الليلة المظلمة- من رعد وبرق وخوفٍ من الصواعق.فإن قلتَ: الذى كنت تقدّره فى المفرق من التشبيه من حذف المضاف، وهو قولك: أو كمثل ذوى صيّب، هل تقدّر مثله فى المركب منه؟ قلتُ: لولا طلب الراجح فى قوله- تعالى:**" أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**". سورة البقرة:١٩/٢ **ما يرجع إليه لكنت مستغنيًا عن تقديره، لأنى أراعى الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام، فلا علىَّ، أولى حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يُله، ألا ترى إلى قوله:**" إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ".سورة يونس:٢٤ **كيف ولى الماء الكاف؟، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء، ولا بمفرد آخر، يُتمحّل تقديره، ومما هو بيّن فى هذا؛ قول لبيد:**

وَمَا النَّاسُ إِلّا كَالدِّيَارِ وَ أَهْلُهَا	**بِهَا يَوْمَ حَلّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ.([٥٢])**

لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها، ووشك نهوضهم عنها، وتركها خلاء خاوية، فإن قلت: أى التمثيلين أبلغ". قلت: الثانى؛ لأنه أدلُّ على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخِّر، وهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ، فإن قلت: فلم عُطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلت: (أو)- فى أصلها- تساوى شيئين فصاعدا فى الشك، ثم اتَّسع فيها، فأُستعيرت للتساوى فى غير الشك، وذلك قولك: جالسْ الحسنَ أو ابن سيرين. يُريد أنهما سيَّان فى استصواب أن يُتجالسا".([٥٣]) وقد أشار ابن فارس إلى ذلك فى باب الخطاب الذى يقع به الإفهام من القائل، والفهم من السامع، ذاكرًا أن ذلك" يقع بين المتخاطبين من وجهين، أحدهما: الإعراب، والآخر: التصريف؛ هذا فيمن يعرف الوجهين؛ وأما من لا يعرفهما، فقد يُمكن القائل إفهام السامع بوجوه يطول ذكرُها فى إشارة وغير ذلك".([٥٤])

وتجدر الإشارة إلى أن المبادئ التوليدية التحويلية تقوم على ثنائية الربط بين العقل واللغة-

---

([٥٢]) البيت من الطويل، وهو من شواهد سيبويه، وهو لأبى عقيل، لبيد بن مالك بن ربيعة العامرى، وهو شاعر كريم، ومخضرم، من أشراف الجاهلية وفرسانها، والبلاقع، هى: القفار، والبلقع: مكان بلقع: خالٍ، والبلقع والبلقعة: الأرض القفر، التى لا شىء بها، والأرض التى لا شجر بها، تكون فى الرمل وفى القيعان، انظر: لسان العرب، ج١: ٣٤٨، مادة: بلق/بلقع. والبيت من مرثيته فى أخيه أربد، قصيدة رقم:(٣٠) مطلعها:
يَلِينَا وَمَا تَبْلِى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ .....وَتَبْقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَ الْمَصَانِعُ.
انظر: الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط٣، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٣: ٣٥٨، وانظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، ط دار صادر، بيروت، (د.ت) : ٨٨
يتناول-بحديثه- الناس والديار وأهلها، ذاكرًا أنهم يُقيمون فى الدنيا فترة من الزمن، ثم يرحلون، فتصير دنياهم وديارهم بعدهم خرابًا، ليس فيها سوى أطلال وخرابات، ويروم تشبيه حال الناس فى حلولهم بالديار وإقلاعهم عنها، بحال تلك الديار التى يُقيم فيها أصحابها، وهو تعج بهم، وتمتلئ صخبًا وحيوية بهم، ثم يغادرونها سريعًا، فتصبح خواء من كل شيء، من الحياة والحركة والصخب، والملاحظ أن عناصر التخييل مكتملة الأركان.

([٥٣]) انظر: الكشّاف، ج!:٩٠-٩١

([٥٤]) الصاحبى فى فقه اللغة العربية : ١٤٣

بعيدًا نسبيًّا عن لغة الانفعالات وعناصر التعبيرات الإفصاحية- وعلى قدرة المؤلف على تزويد المتلقى بما يحقق مراوغة كلامية، تجمع بين الوضوح والغموض الإيجابى. وقد سبق الزمخشرى إلى ذلك، حيث يُؤمن بأن تركيب التخييل: هو دلالة زائدة، فقد يُحمِّله مؤلف النص عبء إتمام المعنى، فتكون غاية التفصيل والتوضيح، يقول، معلِّقًا على قوله- تعالى:" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ". سورة البقرة:١٧/٢**: لما جاء بحقيقة صفتهم، عقّبها بضرب المثل؛ زيادة فى الكشف، وتتميمًا للبيان، وتضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المُثُل والنظائر شأنٌ ليس بالخفيّ، فى إبراز خَبِيَّات المعانى([٥٥]) ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تُريك المتخيَّل فى صورة المحقَّق، والمتوهَّم فى معرض المتيقَّن، والغائب كأنه مُشاهَد، وفيه تبكيت للخصم الألدِّ، وقمعٌ لسورة الجامح الأبيّ، ولأمر ما؛ أكثر الله-فى كتابه المبين، وفى سائر كتبه-أمثاله، وفَشَت فى كلام رسول الله- صلى الله عليه وسلَّم- وكلام الأنبياء والحكماء".([٥٦]) وحين نتأمل كلامه نجد أنه قد سبق كثيرًا من المدارس اللسانية الحديثة فى جعْله تركيب التخييل الحل الحاسم من نقل الذهن من معنى البنية السطحية surface structure إلى معنى البنية العميقةDeep structure، والخروج من قالب الفكرة الذهنية إلى دلالة الصورة التخييلية للمعنى، ويصبح التخييل ملاذًا منطقيًّا لطيفًا لفهم المتشابه من الخطاب القرآنى، وإدراك معانيه. وبذلك نجح فى أن ينقل الأمور الحسية إلى الواقع الذهنى للمتلقى، وهي كما يلى:**

- **تقريب فكرة الإيمان فى أذهان المتلقين ونفوسهم، وردِّ حجج الخصوم.**
- **الاقتناع العقلى والقلبى بما يُعرض من تصورات وتعبيرات ذات أبعاد حسية، بوصف تركيب التخييل ضربًا من ضروب الكلام النفسى.**
- **توفير جمالية التلقى لدى متلقٍّ ما، من أرباب الاعتزال، أو بصورة عامة من الناس كافة، أو ممن تقلد سيف المعارضة لما تؤمن به المعتزلة.**

المبحث الثانى : استقرار المصطلح:

عرف العرب الجاهليون دلالة تركيب التخييل، وبخاصة فى ظعنهم من ديارهم إلى ديار نائية، أو وقوفهم على أطلال المحبوبة، أو بكائهم عليها، أو تخيُّلهم الصحبة فى الارتحال، وقد عبَّر شعراؤهم عن هذا، يقول الشاعر:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ	**لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ. ([٥٧])**

([٥٥]) المقصود: خفاياها، والخباء: غشاء البُرَّة و الشعيرة، لسان العرب،ج٢: ١٠٩٨، مادة: (خبن/ختأ/خبأ).

([٥٦]) انظر: الكشاف، ج ١: ٨٢ -٨٣

([٥٧]) هذا البيت من الطويل، من قصيدة لامرئ القيس بن حجر الكندى، كان قد ساجل بها علقمة الفحل، أمام أم جُنْدب، والبيت فى رواية الديوان: نُقَضِّ، انظر: ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب:(٢٤) القاهرة، ١٩٩٦م:٤١، وانظر: شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصارى، ومعه كتاب: منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب، محمد محى الدين عبد الحميد، (د. ط)، دار الطلائع، القاهرة، ومكتبة الساعى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٤م:١٨٧- ١٨٨

خَلِيلَيَّ مَا وَافٍ بِعَهْدِيَ أَنْتُمَا	إِذَا لَمْ تَكُونَا لِي عَلَى مَنْ أُقَاطِعُ . ([٥٨])
قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَ مَنْزِلِ	بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ .([٥٩])

والمقرر أن مصطلح التخييل قد ارتبط بتلك المصطلحات التى تحمل معنى التصور والهيئة، من مثل: التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، وشمل ذلك كل مادة لغوية، طُرحت على القريحة العربية، فكان سببًا لغرابة المعنى المراد، وفى إدخال الوهم إلى ذهن المتلقى ووجدانه. وخداعه؛ حتى أن العرب كانوا يلجئون إليه طلبًا للمراوغة الدلالية، حين يقصدون أمرًا يضمرونه، أو للتبارى بالقول فيما بينهم، أو إبراز التميُّز على الأقران.

وإن القارئ- لمؤلفات الزمخشرى بشكل عام، ولكشَّافه بشكل خاص- ليجد كثيرًا من الترديد لمَصطلح التخييل وصنوفه، مصرَّحًا بلفظه، أو مضمنًا أنواعه، أو مُشارًا إليه فى أثناء التعرُّض بالتفسير للآيات القرآنية والتراكيب اللغوية، فقد اتخذ من دلالة تركيب التخييل درعًا قوية، ومنطقية، وقاهرة؛ لتحصين معناه، الذى يروم استمالة المتلقى إليه، يدافع بها عن اعتزاله، ويدحض بها مزاعم المعاندين، بعرْض العديد من الحجج، كما اتخذ منه سيفًا منطقيًّا، سلَّطه عليهم، يُفند مزاعمهم، ويستدرجهم إلى الوقوع فى المتشابه، وفى دائرة التشكيك؛ فيلتبس عليهم ما يدينون به.

لذا يؤيِّد الباحث القول بأن الزمخشري كان- بحق- خير متمم لما جاء به عبد القاهر، إذ أقام منهجه على معايير التربية الجمالية فى انتقاء القوالب الصرفية، وصياغة التراكيب اللغوية، وإنشاء النصوص الإبلاغية، وآليات قراءتها، وتحليلها، وتكثيف الأدلة والبراهين التى تجعل ذهن المتلقى متمركزًا حول المعنى؛ بالإضافة إلى إلزام مؤلف النص بأن يتحرى التربية الفنية، وتربية الذوق والشعور الصادق، حين يشرع فى ممارسة فعل التعرض للنصوص الأدبية، فى صياغتها، ونقدها، وتعرُّف مواطن القبح والجمال فيها، ومحاولة استكناه ما تحويه من مضامين؛ مدركًا أنه إذا أَلِف الذوقُ الشعورَ بالجمال مارس فعل القراءة، باحثاً عن أبعاد الجمال فيها. وإن المتتبع لما جاء به الزمخشري ليصل إلى قناعة تامة، بأنه أراد أن يُتم ما بدأه عبد القاهر– مبتعدًا عن التقليد النمطى- مع إكسابه شخصيته الذاتية، القائمة على آلية التوسُّع والتعمُّق، بأن يجعل طاقة التلقى تنفتح على آفاق أخرى ومجالات أرحب.

يقول:" اعلم أن متن كل علمٍ، وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيها متدانية، وإنما الذى تباينت فيه الرُّتب، وتحاكت فيه الرُّكب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظُم فيه التفاوت

([٥٨]) البيت من الطويل، وهو من شواهد ابن هشام فى مغنى اللبيب، رقم:(٦٩٩)، وفى شرح شذور الذهب رقم: (٨٤) ، ويبدو أنه بلا نسبة إلى قائل معين.انظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، وبهامشه: مختصر شرح شواهد العينى، للعلامة السيوطى، تدقيق الدكتور: صالح عبد العظيم الشاعر، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: ٤٤٨، وانظر: شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصارى، ومعه كتاب: منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب: ٢١٠، وانظر: شرح التسهيل، المسمى: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لجمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك الطائى الحيانى الأندلسى،(ت٦٧٢هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحى السيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١: ٢٦٠

([٥٩]) البيت لامرئ القيس بن جحر، من الطويل، انظر: ديوان امرئ القيس:٨

والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عُدَّ ألفٌ بواحد، ما فى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفِقَر، ومن لطائف معانٍ يدقُّ فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلَّا أوحدهم وأخصهم، وإلَّا واسطتهم وفصُّهم، وعامتهم عُماةٌ عن إدراك حقائقها بأحداقهم، ثم إن أملأ العلوم بما يعمر القرائح، وأنها بما يُبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن. فالفقيه، وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم، وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ، وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي، وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي، وإن ملك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان؛ وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذًا من سائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانًا، ورُجع إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارسًا في علم الإعراب، مقدمًا في حملة الكتاب وكان- مع ذلك- مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها؛ يقظان النفس درَّاكًا للَّمحة، وإن لطف شأنها، منتبهًا على الرمزة، وإن خفي مكانها؛ لا كزًّا جاسيًا، ولا غليظًا جافيًا، متصرفًا ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير رَيِّض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام، ويؤلَّف، وكيف ينظم ويُرصف؛ طالما دُفِع إلى مضايقه ووقع في مداحضه ومزالقه".([٦٠])

ويقف تركيب التخييل موقف المستدعى، لما أطلقت عليه التداولية الحديثة مرتكز الافتراض المسبق بين المؤلف والمتلقى؛ حيث إن المعانى أطر تحتملها الألفاظ،" والأمر فى معاناتها أشد؛ أما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ، وزمام المعانى، وبه يتصل أجزاء الكلام، ويتسم بعضه ببعض، وتقوم له صورة فى النفس، يتشكل بها البيان".([٦١]) ولعل ما ذكره من تلك الأصول التطبيقية، يلتقى مع ما جاء به عبد القاهر، فى قول الأخير:" ومن عادة قوم أن يتعاطوا التفسير بغير علم؛ أن توهموا أبدًا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل، أنها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض، ويمنعوا أنفسهم، والسامع منهم العلم بموضع البلاغة، وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه، وجعلوا يُكثرون في غير طائل؛ هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به، ونسأل الله العصمة والتوفيق".([٦٢])

ليس من شكٍّ فى أن البعد الدلالى لتركيب التخييل يؤدِّى دورًا حاسمًا في صنع الصور التشبيهيَّة؛ بجوار الصورة الذهنية القارَّة فى فكر المتلقى، أو الفكر الجمعى لدى الجماعة

([٦٠]) الكشاف، ج ١: ١٧- ١٨
([٦١]) البرهان فى علوم القرآن : ٤٣٢
([٦٢]) انظر: دلائل الإعجاز: ٢٣٦

اللغوية، أو كأنه يقدِّم صورة أخرى للمعنى، تقوم على الحيوية والحركة، والمتعة؛ مع إمكانية حملِه لمفاجآت ذهنية، أو نفسية، يعمد إليها المؤلف، بما يثير دهشة المتلقى، ويستحوذ على إعجابه، بقوله:" لأن الصنعة إنما تمدُّ باعها، ويُنشر شعاعها، وهنا يجد الشاعر سبيلًا إلي أن يبدع ويزيد، ويُبدئ في اختراع الصورة ويعيد، ويصادف مضطربًا كيف شاء واسعًا، ومددًا من المعاني متتابعًا".(٦٣)

المبحث الثالث: دلالة تركيب التخييل (قصدية الاستخدام وحُسْن التوظيف):

يُبرز الطرح التداولى فى رؤية الزمخشرى، فى تناوله لتراكيب التخييل، لاسيما فى تخيُّله ذواتًا افتراضية، أوحاضرة، ومشاهدة فى موقف التخاطب، مفردة كانت أو مجموعة؛ معارضة، أو من بنى جلدته من أرباب الاعتزال، فنراه يجعل لكل صنف من هذه الصنوف حوارًا، ونسقًا منتخبًا من القوالب الشكلية والدلالية؛ بل على العكس، فأحيانًا نراه ينتخب قوالب، يحسن أن نطلق عليها: قوالب التراكيب النفسية، أو قوالب الكلام النفسى، إذ يُظهر- من خلال انتخابها، ومن ثم صياغتها وهيئتها- رِدة نفسه إزاء هذا المحاور،حبًا أو كرهًا، حدبًا أو مهاجمة. ويستطرد محتفيًا بالاستعمال، بوصفه أصلًا من الأصول التداولية، فيذكر فى"(فصل) قد وقع المبتدأ والخبر معرفتين معًا؛ كقولك: زيدٌ المنطلقُ. والله إلهنا، ومحمدٌ نبيُّنا؛ ومنه قولهم: أنت أنت، ولا يجوز تقديم الخبر-هنا- بل أيُّهما قدَّمت فهو المبتدأ".(٦٤) ويؤيِّد هذا الرأي قولُ الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) حيث أكَّد أن للكلمة المفردة أثرًا فى الدلالة الجزئية والدلالة الكلية، وأن ائتلاف اللفظ والمعنى هما سبيلا الجمال للنص، من حيث الشكل والمضمون؛ بل هما من مُعينات المتلقى على ادراك القصد؛ فهذا الأمر مما يضفى على النص جلالًا ووضوحًا، ويمكننا من أن نحلل العمل الأدبى إلى أجزاء من الفكرة والمعنى، وإلى أجزاء أخرى من التمثيل والتصوير".(٦٥)بيد أن الرازي لا يمنع وقوع المغايرة والمراوغة بين الدال والمدلول؛ فى ضوء تمركزهما حول المعنى العميق؛ يقول :" كأن نخصُّ كل إنسان باسم علم معين؛ فلو لم تكن الدلالات متباينة، لما اختلفت أسماء أعلام الناس، كل هذا الاختلاف".(٦٦)

وهنا يَحسُن الانتباه إلى أنه قد يتحقق انهيارٌ لأسس الاستلزام التحاورى، ويحدث فشل تداولى؛ تُنتهك فيه كثيرٌ من مبادئ التداولية، من حيث الكمية، والهيئة، والجهة، ومبدأ الملاءمة أو المناسبة؛ حيث يقع المؤلف تحت تأثير معتقده (٦٧)، أو ما يُسمى: خلفية

---

(٦٣) أسرار البلاغة : ٣٤٣

(٦٤) انظر: المفصَّل في علم العربية، تصنيف، الزمخشرى، دراسة وتحقيق، د: فخر صالح قدارة، ط١، دار عمار، عمان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م:٥١

(٦٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د: إبراهيم سلامة، ط٢، الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م:١٧١

(٦٦) مفاتيح الغيب، للإمام، الفخر الرازي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، ج١: ٢٢

(٦٧) انظر حديث الزمخشرى حول نفى رؤية العبد لله- تعالى- وتطاوله على أهل السنة والجماعة، واصفًا إياهم بفساد أقيستهم، حتى أنه وصفهم بالبلكفة، يقول:

لجماعةٌ سمُّوا هواهم سُنَّةً ..... وجماعةٌ حُمُرٌ لعمرى موكفه.

قد شبَّهُوهُ بخلقه و تخوَّفوا ..... شنع الورى فتستَّروا بالبلكفة.

فقد انتهك الزمخشرى مبدأ الهيئة، ومراعاة أفق انتظار المتلقى، وكذلك مبدأ الافتراض المسبق، والتفاوض الحجاجى، حيث رأيناه لا يُراعى حال متلقيه، إن خالفه فى معتقده؛ فى حين أنه لما راغ- بحديثه- إلى أهل العدلية

الاعتقادات([٦٨]) فنجد إهمالًا منه للمعانى، فى حين نراه يفسر تركيب التخييل بدلالات مستقيمة وعميقة، حين يُحاور أهل الاعتزال، وليس من شك فى أن هذا التوجُّه تعظيم للتداولية الاجتماعية، التى تعنى استعمال اللغة فى السياقات الاجتماعية والطرائق التى ينتج بها الناس المعانى، ويفهمونها من خلال هذه اللغة؛ بالتركيز على ما يُريد المؤلف إيصاله، وآليته فى عملية الإيصال، وطريقة المتلقى فى تقبل ما يُرسل له، فى ضوء محددات تفسيره وسياقه.([٦٩]) عند هذه المرحلة تتصاعد درجة التداولية، وترتفع كفاءة الأفعال التأثيرية والسلوكية، ويتحقق فى تركيب التخييل مراعاة مبدأ احترام العلاقة بين المؤلف والمتلقى، بالإضافة إلى مراعاة طاقته؛ ويتجلى الانفتاح الدلالى، بعيدًا عن الالتزام بالمعنى الحرفى؛ فيُمنح المتلقى قدرة على تفسير فعل القول المتلفظ به، فى سياقه التداولى.

وإن المتأمل لكلامه حول التراكيب القرآنية:(أرنى أنظر إليك)و(لن ترانى) و(لكن انظرإلى الجبل)و(فسوف ترانى)، من قوله– تعالى:" وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**".سورة الأعراف:١٤٣- يُدرك اقتناعه بأنها من التراكيب التى تقوم على نفى وجود التجسيم، وأن دلالتها من باب مخاطبة الحواس، ويستدل على ذلك بأن النظر إلى الله–تعالى- مُحال؛ لذا حوَّل الخطاب القرآن ذهنية موسى–عليه السلام- إلى تركيب تخييلى آخر، وهو النظر إلى الجبل، وهو يُدكُّ بلا استقرار.**

وهذا أيضًا، يُدرَك– بدايةً- بالحواس، ثم يصير حقيقية، وهنا إشارة إلى أن فى تركيب التخييل إدماجًا للدلالات، فقد أُستخدم المضمر بدلًا من المظهر؛ فجاء بضمير(ياء المتكلم) بدلًا من التصريح بلفظ الجلالة- تعالى- مبالغة فى توفير مزيد من الدلالات التخييلية.([٧٠]) فأوقع التداخل بين دلالة العناصر اللغوية، ودلالة تركيب التخييل ذهنية المتلقى فى حيرة، التى تسببت فى انتهاك مبدأ التفاعل مع مضمون الفعل الكلامى.

يقود الكلام السالف الذكر إلى الادِّعاء بأن الزمخشرى- فى سبيل تحقيق عملية تواصلية جديدة وناجحة- قد يستهين بالقواعد العليا للتداولية، فهو- فى سبيل تحوُّطه لمعناه، الذى يسوقه لغير بنى جلدته- قد ينتهك مبادئ التأدُّب وحُسْن التفاوض التداولى، واللياقة التحاورية، بوصف ثلاثتها من أنماط الأفعال الكلامية الضمنية؛ التى تنوب عن الأفعال الكلامية الصريحة، وتُشير إلى عدم وجود كلمات ملائمة من لدن المؤلف تجاه المتلقى، فاستثمر الطاقة الدلالية للسياقات المضمنة، والمجسدة–أحيانًا- فى التزام التأدب، واللياقة،

والاعتزال؛ رقت لغته، وعنى بالتحليل، وإبراز عقلانية نفى الرؤية، وساق لذلك أدله، منها وعيد الله– تعالى- بالرجفة الكائنة؛ لموسى– عليه السلام- وللجبل، بسبب طلب النظر على الشريطة فى وجود الرؤية، مشيرًا إلى أن خطاب الله– تعالى- موجه إلى نمط رفيع من القرَّاء، حيث أشار إلى أن هذا الكلام مدمج بعضه فى بعض، فننخفض درجة التداولية بين المؤلف والمتلقى. انظر: الكشَّاف،ج٢: ٦١-٦٣

([٦٨]) انظر: التداولية ، مقاصد وآداب: ١٤٠

([٦٩]) التداولية (مقاصد، وآداب): ٥

([٧٠]) انظر: الكشاف، ج٢ : ٦١ - ٦٣

وحُسن التفاوض([٧١])

وقد علَّق الزمخشري مسألة تكوُّن الجملة أو النص بتحقق عنصر الإفادة، فتكون لغة الاستعمال ، هى التى يتحدث بها المؤلف والمتلقي فى موقف التواصل، وقد لا تخضع هذا اللغة للأصول النحوية، بل قد تنتهك الجملة أو النص معايير النحو طلبًا للإفادة، يقول في باب: المبتدأ والخبر:" والمبتدأ والخبر هما الاسمان المجرَّدان للإسناد، نحو قولك: زيدٌ منطلقٌ. والمراد بالتجريد إخلاؤهما من العوامل التي هي: كان، وإن، وحسبت، وأخواتها؛ لأنهما؛ إذا لم يخلُ منها، تلعَّبت بهما، وغصبتهما القرار على الرفع، وإنما أشتُرط فى التجريد أن يكون من أجل الإسناد؛ لأنهما، لو جُرِّدا، لا للإسناد، لكانا فى حكم الأصوات، التى حقها أن يُنعق بها غير معربة".([٧٢]) ونجد هذا الرأي عند القاضى الجرجانى(ت ٨١٦هـ)، إذ يذكر أن التركيب هو: انضمام كلمة إلي أخري، وتعد الجملة هي المركب المفيد، أى: مجموعة كلمات في معني تام، والتركيب كالترتيب؛ لكن ليس لبعض أجزائه نسبة إلي بعض؛ تقدُّمًا و تأخُّرًا.([٧٣]) وفى هذا الكلام إشارة إلى احتمالية التحرُّر من المعايير النحوية وتغليب الاستعمال على سلطة المعيارية، وأن تكون وظيفة العناصر اللغوية متمثلة في إنجاح عملية التواصل، بأن يسوق المؤلف من عناصره ما يُحقق به الإفهام والتواصل.([٧٤])

وهو الشىء نفسه الذى تنادى به التداولية، إذ تقوم على مرتكزات خمسة، تُسهم فى انتقال ذهن المتلقى من مجرد مستقبل، إلى مُستدعٍ لأبعاد التحليل والتفسير، وإدراك عِلِّيَّة الورود، ووضع القصد بين الحُسْن والقبح، أوبينَ القبول والرد، وهذه المرتكزات، هى: أفعال الكلام، والافتراض المسبق، والاستلزام الحوارى، والعناصر الإشارية، من حيث التشكيل والوظيفة التعبيرية، ودورها فى إنجاح عملية التواصل فى الاستعمال([٧٥])، والحجاج، وما يملكه من أسس تفاوضية، ومراعاة لحال المتلقى فى عرض الحجج وتكثيف البراهين، بحسب نمط التلقي([٧٦])، بالإضافة إلى مراعاة أفق الانتظار وطاقة التلقى أثناء التعرض لمفردات القصد.([٧٧])

لذا يُعد الزمخشري أنسبَ من يُمثَّل به، للتنظير مع المدارس اللسانية الحديثة، إذ بدا-في كشَّافه- مُدركًا لأبعاد عملية التواصل، الإلقاء والتفسير، وأن الدلالة الكلية للقصد تتألف من مجموعات من الأنساق الجزئية، في ضوء المعيارية والاستعمال، لذا بدا متنوعَ المعارف،

([٧١]) انظر : التداولية ، مقاصد وآداب: ١٥٤ ـ ١٥٥

([٧٢]) انظر : المفصل في علم العربية :٤٧-٤٨

([٧٣]) انظر: التعريفات، للجرجاني، تحقيق: نصر الدين توني، ط١، القدس للتصوير، ٢٠٠٧م: ٩٨

([٧٤]) انظر: نحو اللغة العربية الوظيفى فى مقاربة أحمد المتوكل(الاستلزام التخاطبى أنموذجًا)، محمد يزيد سالم، مجلة حوليات جامعة بشار فى الآداب واللغات، العدد(٢٠) جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠١٧م : ١٢٤

([٧٥]) انظر: الدراسة التداولية فى مادة الحوار فى كتاب العربية بين يديك محمد بن ستيا، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، جاكرتا، ٢٠٢١م/١٤٤٢هـ، نسخة : pdf:٢

([٧٦]) انظر: التداولية، تأليف: جورج يول، ترجمة، د: قُصى العتَّابى، ط١، الدار العربية للعلوم، ناشرون، دار الأمان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م:١٤

([٧٧]) انظر: التفكير التداولى فى كتاب الحروف، لأبى نصر الفارابى، الطالبة: بن شريط نصيرة، رسالة دكتوراه، الجزائر، ٢٠١٦م/٢٠١٧م ، نسخة pdf:١١٨

كثيرَ الاستدلال والتحليل، مُخفيًا لمعانٍ ضمنية في ثنايا كتابه وتعليقاته؛ مستدلًّا بالعقل والبرهان والتحليل على ما يذهب إليه، ومن أدلة ذلك أنه قد دسَّ- بمنهجية دقيقة- مذهبه الاعتزالي في كتاب (الكشَّاف)، بدا ذلك في تمحيصاته العقلية، فتارة يُطنب، وأخري يوجز، مراعيًا-بذلك- طاقة التلقي، حسب نمط المتلقى، وطبيعة الافتراض المسبق بين المؤلف والمتلقى؛ كما أنه وعى أبعاد الاستلزام الخطابي، الذي يُلزم المؤلف بأن يقدِّم شخصيته ومعارفه لمتلقيه. كما بدا مُدركًا خصائصَ التنوع فى نمط التلقى؛ فيفترض-تارة- أنه يحادث عالمًا، يسأل، وهو يجيب. بعبارتيه الشهيرتين، فإن قلتَ، بفتح التاء، قلتُ، بضمها، معتمدًا على سلاسل من الأسئلة المقدرة، أو الإقناع بالسؤال الافتراضى والجواب؛ وأخرى يُصدِّر لمتلقيه قصدًا هامشيًّا، تكشف عنه البنية السطحية لمفرداته وقوالبه، بيد أنه يخفي قولًا ضمنيًّا، وثالثة فى بذْله أقصي طاقة حجاجية، ليكشف عن القصد الحقيقي وراء النص، ورابعة قد يلجأ إلي التأويل، فيُهرع إلى المجاز أوالتأويل، وإن استدعى لىَّ المعانى عن دلالتها؛ وصولًا بالمتلقي إلي حدِّ الاقتناع.

ليس من غضاضةٍ فى تأكيد المتعرض-لدرس تركيب التخييل واحتياط المؤلف لمعناه- أن يُشير إلى أن الزمخشرى- فى احتفائه بجماليات تركيب التخييل- قد جانبه الصواب أحيانًا، لاسيما حين لجأ إلى قسْر دلالة القوالب اللغوية حول معنى نوعى ما، وإلى التأويل المذموم للألفاظ والتراكيب، فحمل التراكيب على غير حقيقتها، وألزمها بأن ترتدى ثوب المجاز، وقد قادته مغالاتُه فى التعصب للاعتزال إلى ردِّ بعض التراكيب، أو حمْلها على غير ما أُريد بها، حين كان حملها على الحقيقة أولى، وكان فى حملها على المجاز لَىٌّ ومجافاة، بيد أن صنيعه هذا- من زاوية أخرى- محمول- فى بعضه- على التوسُّع، وفى بعضه الآخر مناسب لما تنادى به الدراسات التداولية الحديثة، حين يمنح التراكيب فيوضات دلالية محتملة ومقبولة، وبدليل من العقل والنقل، أو تكون من باب الاستعمال أو الترجيح.

ولئن بدت أصول عبد القاهر الجرجانى- حول آلية تركيب التخييل- مُنصبة على مادة الاستشهاد من الأقوال الشعرية، وأن غاية المتلقى أن يُدرك المعنى الحقيقى حسب السياق ونمطية القراءة؛ وحسب أبعاد الأحوال المشاهدة، فإن الزمخشرى قد ألزم مؤلف النص بأن يسوق قوالب تخييلية، إذ عليها يعتمد المعنى، وهى أداة لتطويره، ومحاولة جادة لإيصاله إلى عوالم التلقى المادية والحسية، ليدركها المتلقى بصورة أدق، وليستشعرها بحالة أقوى، وليستنبط أن تركيب التخييل يماثل الفعل الكلامى المقصود؛ لِيُجنِّب المتلقى سوء التأويل، والاختلاط الدلالى .وقد أدرك الإمام الزركشى الدور الحاسم للسياق فى تحديد الدلالة، وجعل له دلالة،" ترشد إلى تبيين المجمل، وتقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوزع الدلالة؛ وهو-أى: السياق- من أعظم القرائن على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط فى نظيره، وغالط فى مناظراته".([٧٨])ويحرص الطرح التداولى على أن يتوفر ما يُعين المتحاورين على التحدُّث بعضهم مع بعض، فى حوارٍ بشكل ناجح؛ بالتعاون

([٧٨]) البرهان فى علوم القرآن : ٤٤٥

معًا فى تحقيق التشارك الحوارى والحفاظ على ذلك.([٧٩]) لذا فإن المتأمل لتوظيف الزمخشرى لدلالة تركيب التخييل، فى الاحتياط للمعنى الكلى للمؤلف، يُدرك أنه كان فطنًا لضرورة أن يتعاون المؤلف والمتلقى فى جعل حدث التخاطب مستمرًا وناجحًا؛ حيث إن وجود دلالة الصورة جنبًا إلى دلالة فعل التلفظ، ممَّا يمنح القصد بقاءً أطولَ فى ذهن المتلقي؛ مما يوثق الصلة بين القصد ومستخدم النص.

لقد وُفِّق الزمخشرى في اختيار النموذج الجمالي القائم على لذَّة الدلالة فى تركيب التخييل، وعلى إدراك المعنى من خلال الإقناع البصرى، ومشاهدةِ المحسوسات مشاهدةَ الماديات، وهذه اللطيفة لم يُشر إليها الطرح الأصولى لتركيب التخييل عند عبد القاهر، حيث أخضعها عبد القاهر إلى الأدلة العقلية والمنطقية أما الزمخشرى، فيرى أن إدراك المعنى يقوم على عوامل الاستدلال ، والمعرفة البصرية لدقائق المعنى، ويرى أن دلالة تركيب التخييل التصويرية ركن أصيل فى هذا الصدد، يقول – فى قوله – تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**". سورة البقرة: ١٣/٢:" فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ: لا يعلمون، والتي قبلها بلا يشعرون؟، قلتُ: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق، وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال، حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق- وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض- فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس ؛ خصوصًا عند العرب في جاهليتهم ، وما كان قائمًا بينهم من التغاور، والتناحر، والتحارب، والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه، وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقًا له".([٨٠]) وقد ألزم معتقد الاعتزال الزمخشرى بأن يقرَّ أن المتلقى دائم البحث عن المعنى الحرفى للتراكيب والنصوص، ولكل متلقّ طاقةٌ وتأويلٌ؛ وكل متلقّ متهافت على اقتناص المعانى الحقيقية، التى يُظن أنها هى ما أراده مؤلف النص، مدعيًا أن هذا القصد هو الوحيد الذى صاغه المؤلف وقصده، كل هذا ألزم الزمخشرى أن يُحلل، ويعرض حججه، وأدلته وبراهينه، بصورة حاضرة أو افتراضية، مُنَوِّعًا فى الأسلوب والطرح، كاشفًا أو مضمرًا للعديد من الخفايا والدقائق أثناء تحليلاته. بقى للباحث أن يدلف إلى تحليل بعض النماذج التطبيقية، التى تؤيد افتراض الباحث بسبق الزمخشرى للعديد من النظريات اللسانية، التى درست المعنى، وما يتصل به.**

([٧٩]) انظر: التداولية (مقاصد، وآداب):٣

([٨٠]) انظر : الكشاف، ج ١: ٧٥ - ٧٦

الفصل الثانى:(الجانب التطبيقى) نماذج لتطبيقات دلالة تركيب التخييل، واحتياط المؤلف لمعناه،(فى ضوء بعض المدارس اللسانية الحديثة) وفيه مبحثان،هما:

المبحث الأول: دلالة تركيب التخييل نسق من أنساق الإقناع بالدلالة الكلية، ويتضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: دلالة تركيب التخييل واحتمالية التأويل فى السياق التداولى:

تُلزم النظريتان البنيوية التفكيكية والتداولية المؤلف بأن يسوق قصده إلى متلقيه، فى صورة من الوضوح، اعتمادًا على كون المعنى مؤلَّفًا من مجموعة من الأنساق الجزئية، التى يأتى على رأسها نسق الافتراض المسبق بين الطرفين، وهذا يقتضى أن يُراعى المؤلف مبدأ الكمية؛ من حيث المعلومات المُلقاة إلى أفق انتظار المتلقى، بحيث لا تُجاوز القدر المطلوب للتعبير عن المعنى المقصود، فالزائد لا معنى له([٨١]) بدءًا من التعبير الإفصاحى، الذى يحمل دلالة نوعية على المعنى، وصولًا إلى النصوص الإبداعية بتمامها؛ بوصف النص كيانًا يحمل قصدًا ما، قد يندرج تحته مقاصد. وتلزمه التداولية بأن يعرض هذا القصد فى هيئة كلامية مناسبة، بحيث تكون قوالبه وتراكيبه مستعملة استعمالًا مقبولًا، غير حوشية ولا مبتذلة، ولا مستهجنة؛ أوغريبة عن طاقة التلقى وأفق انتظاره؛ فلا يجنح إلى الإفراط المُمل، ولا يروغ إلى الإيجاز المُخل، بل يستهدف مراعاة قصده، وحال متلقيه، ونمطه، وطبيعة المُلقى إليه، وحالته النفسية، وسياقات الاستعمال والتفسير، والدلالات الاجتماعية، إذ تعنى التداولية بالتواصل والاستعمال الفعلى لعناصر اللغة والسياق.([٨٢]) مما يؤيد القول بوجود اتصال قوى بين الأبعاد التداولية والسياقات الفكرية، والنفسية، والاجتماعية، والرمزية. ويرتبط بهذا الكلام ما ذكره ابن فارس، فى باب التكرار أن العرب من سننها التكرير والإعادة؛ عند إرادة الإبلاغ، بحسب العناية بالأمر.([٨٣]) من أجل ذلك احتاط الزمخشرى لمعناه، ليستميل طاقة التلقى ووجدان المتلقى إلى تأويل محتمل مقصود، يروم إيصاله، وعمد إلى طرح هذا الأمر فى مجموعة من الآليات، جاء على رأسها دلالة تركيب التخييل.

ولعل أجمل ما نري عنده أنه يفترض محاورًا متباين الأنماط، يعرض عليه الفرضيات ، ويقدِّرالتساؤلات في جدية، حتى أنه ليفترض نمطًا من الأسئلة المقدرة، أو المضمَّنة فى فعل التلفظ، الذى يُلزم نفسه بالإجابة عنها، بصورة فيها إحاطة ورؤية، وبذكاء ومناسبة، وأحيانًا بدهاء، واستخدام لدلالات متعددة، يستثمر فيها المؤلف طاقات الاستعمال والمواضعة، والدلالات العرفية، التصريفية، والنحوية، والعقلية، واللغوية، والسياقية؛ وتارة يُعلي قيمة الدلالات العقلية، القائمة على المنطقية و الاستدلال؛ وأخرى يلجأ إلى تلك الدلالات التى تقوم على تصوير المعنى. ويبدو أن الرجل كان علي وعي تام بمفهوم الاقتضاء، فكل ما يسوقه المؤلف من عناصر المعنى ومفرداته يُسهم فى الاحتياط له،

([٨١]) انظر: البرهان فى علوم القرآن : ٤٢٣

([٨٢]) انظر: التفكير التداولى فى كتاب الحروف، لأبى نصر الفارابى:١٠٢

([٨٣]) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية : ١٥٨

ويؤكِّد دلالته؛ وكأن كل حديث عنده يقتضي فهمًا ما، وله ما يؤيده، بعلاقة طردية بين اللازم اللفظى، والملزوم الدلالى؛ في قوالب وتراكيب تجمع بين الأساليب الصحيحة والأنماط الرفيعة من التراكيب المفيدة، المستثيرة لذهنية المتلقين، على تباين أنماطهم؛ فيكثِّف الأدلة العقلية والبراهين؛ حسب أفق الانتظار لدي المتلقي، أو للفكر الجمعي لجماعته الدينية أو اللغوية.

ونراه–أحيانًا– يراعي طاقة التلقي؛ بأن يقدِّم خدمات مذهبية أو فكرية، أو شعورية للمتلقي، فنراه– حين يتوجه بخطابه إلى أرباب الاعتزال- يبسط القول تارة، ويوجزه أخرى، ويسوق الأدلة والبراهين، ويُحلل الآراء ويفندها تارة ثالثة، ويُقدم له ما يُعينه فى استكناه القصد، ويتيح له حرية التأويل، ويعفيه من كثرته تارة رابعة، فإذا ما توجه بحديثه إلى غير بنى مذهبيه، وجدناه يُكَبِّلُه بدلالات مذهبية تارة خامسة، فإذا تعلَّق الأمر بحديث الاعتزال أحاط ذهنية المتلقي بأشواك الاقتناع والاكتفاء، فإذا برزت مسألة إشكالية، تتصل بمذهب الاعتزال؛ بادر برد الجدال، حتي يُلبسها ثوب عدم الجدية، واستعصم بالمجاز والتأويل؛ فإذا ما أدرك عصيانها علي ضوابط الإقناع؛ استثمر الروابط الحجاجية، من أمثلة: الأدوات اللغوية، والأدلة البلاغية، والبراهين العقلية المنطقية، ومنهجية المناقشة، والتمثيل، فنراه تارة يستحضر طاقة الأدلة النحوية، وأخري يستدعي قوة البراهين العقلية، وثالثة إلي الحقيقة، ورابعة إلي المجاز؛ فتنتقل من حيز الاهتمام إلي حيز التهميش .([٨٤])

حتى فى احتفائه بطاقة التلقي نجده– قاصدًا- لا يترك معونة دلالة تركيب التخييل، بل إنه يختص التمثيل من ضروب التخييل بالتكثير منه، لأن مدار أمره على قسْر المتلقى على الاقتناع، بعد أن يسوق له كل ما يُعينه على الاقتناع، فهو يعرض، ويردُّ، ويُحلل، ويفترض، ويناقش، ويعارض، ويؤيد، ويلين، ويستميل، ويقسو، ويعرض المعنى-تارة- فى صورة حقيقة، وتارة أخرى يضرب مَثَلًا، وثالثة بتخييل بصرى، ورابعة بمزج بين الصورتين الذهنية والبصرية؛ وخامسة فى استثمار دلالات المجاز والتأويل، كل هذا فى إصرار منه على استمالة المتلقى إلى جانبه، واستقطابه؛ أو رغبة منه فى تقريع مَن يعارضه، ليؤمن بما دان به، فى أسلوب توافرت له عناصر التحليل، والمنطقية والسلاسة والوضوح والتعقل والجمال، وهنا يبرز مفهوم الكفِّ، الذى يقوم المؤلف فيه بالكفِّ عن ذكر الخبر، اكتفاءً بما يدل عليه من الكلام".([٨٥])

يقول، فى نحو قوله–تعالى:" لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**".**سورة الواقعة:٦٥**: فإن قلت: لم أُدخلت اللام على جواب لو فى قوله:" لجعلناه حُطامًا". ونُزعت منه ها هنا ؟.([٨٦])قلتُ: إن (لو)، لما كانتا داخلة على جملتين، معلقة ثانيتهما بالأولى؛ تعلُّق الجزاء بالشرط، ولم تكن مخلصة للشرط (كـ: إن)، ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط؛ من حيث إفادتها فى مضمونى جملتيها أن الثانى امتنع لامتناع الأول، افتقرت- فى جوابها- إلى ما ينصب علمًا مشهورًا مكانه؛ فلأن الشيء إذا عُلم وشُهر موقعه، وصار**

([٨٤]) انظر: الكشاف، ج١: ١٥٣

([٨٥]) الصاحبى فى فقه اللغة العربية: ١٩٧

([٨٦]) إشارة إلى قوله– تعالى:" لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ". سورة الواقعة، الآية:٧٠

مألوفًا، ومأنوسًا به لم يبالَ بإسقاطه عن اللفظ؛ استغناءً بمعرفة السامع(اكتفاءً بقرينة علم المخاطب)، ألا ترى ما يُحكى عن رؤبة؛ أنه كان يقول: خيرٍ، لمن قال له: كيف أصبحتَ؟ فحذف الجار، لعلم كل أحد بمكانه، وتساوى حَالىْ حذْفِه وإثباتِه؛ لشهرةِ أمرِه، وناهيك بقول أوس بن حجر:

حَتَّى إِذَا الْكَلَّابُ قَالَ لَهَا	كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَ لَا طَلَبًا .([87])

وحذفه: لم أر؛ فإذن حذفها اختصارٌ لفظيٌّ، وهى ثابتة فى المعنى، فاستوى الموضعان، بلا فرق بينهما.([88]) ويقول–في موضع آخر:" هذا من الكلام المتسامح فيه؛ ثقة في تأويله بأفهام السامعين، واتِّكالًا علي تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد، وعليه كلام الناس المستفيض، يقولون: لا يُثيب الله عبدًا، ولا يعاقبه إلَّا بحقٍّ، وما تنعمت بلدًا ولا اجتويتُه إلَّا قلَّ فيه نوالي".([89])وعدَّ الزمخشري مفسر الضمير في (يعرفونه) مما سُتر، فقال: وجاز الإضمار، وإن لم يَسبق له ذكر، لأن الكلام يدل عليه، ولا يلتبس علي السامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه- لشهرته وكونه علمًا- معلوم بغير إعلام".([90])

المطلب الثانى: دلالة تركيب التخييل دالة على انفعال الذات(مرتكز الحجاج):

من يُطالع صنيع الزمخشرى فى كتابه الكشاف، يُدرك أنه قد سبق كثيرًا من المدارس اللسانية الحديثة، فى نحو حديثه أبعاد الحجاج، وما يندرج تحته من ضوابط الاستلزام الحواري، والقصدية النصية، وما افتراضه للأسئلة المقدرة وجوابه عنها إلَّا إدراكٌ منه لضرورة وجود علاقة ضمنية أوافتراض مسبق بين مستخدمي الخطاب اللغوي، قوام هذه العلاقة توافر خلفية مشتركة بين المؤلف والمتلقي، وقد تجلَّى إنكارُه للقول بموت المؤلف، فالمتلقي دائم الاستفسار، والمتكلم دائم الجواب ملتزم به، وجميعها صورٌ تداولية مقصودة.([91])

المطلب الثالث: دلالة تركيب التخييل وحَمْل المعنى المضمَّن فى فعل التلفظ:

يوشك الزمخشرى أن يمنح تركيب التخييل صفة التعقُّل والتمييز، ويجعل له منطقًا، فنراه

([87]) والبيت لأوس بن حجر، من الكامل، يُريد: اشتد طلب الصائد، الذى هو الكلب، وهرب الصيد، الذى هو الوحش؛ حتى قال لها الكلاب: لم أر مطلوبًا كمطلوب أراه اليوم، ولم أرِ طالبًا كطالبٍ أراه اليوم، يصف الكلاب، وهو يدربها على الصيد، يقول: إن الأمر يطرد ويشتد؛ حتى أن الكلَّاب يقول لكلابه: لم أرِ مثل اليوم صيدًا يُطلب، ويعمل على اقتناصه، وبالرغم من ذلك؛ فإنه لا يدرك من هذا اليوم غايته ومُراده، والكَلَّابُ: معلم الكلب، والهاء فى (لها)، ضمير يعود إلى الكلاب، وطلب: جمع طالب، نحو: خَدَمٌ، جمع خادم، ويُستشهد بهذا البيت على جواز حذف (العامل) الفعل، أو جواز حذف النافى والمنفى؛ اللذين هما: لم أرَ، أراد: لم أرَ كاليوم، فحذف. انظر: ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: الدكتور: محمد يوسف نجم، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م:٣

([88]) الكشاف، ج ٤ : ٣٩٨

([89]) انظر: الكشاف، ج ٢ : ٥٤١

([90]) الكشاف ، ج ١: ٢٠٠

([91]) يبدو البعد الحجاجى فى تعليله لدخول الباء على كلمة اسم، فى جملة البسملة(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)، الآية الأولى من أم الكتاب(١/١)، حيث يقول: فإن قلتَ: بمَ تعلَّقت الباء؟ قلتُ: بمحذوف، تقديره: باسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذى يتلو البسملة مقروء، كما أن المسافر؛ إذا حلَّ أو ارتحل، فقال: بسم الله والبركات؛ كان المعنى: بسم الله أحِل، وباسم الله أرتحل، وكذلك الذابح، انظر: الكشاف، ج١: ٢٤

يشكِّل منه ذاتًا افتراضية، تتوقع وتحاور، وتحلل، وتفند، وتبدع، وتقدِّر، وتسأل، وتُجيب، بل يستشهد بدلالته على الدلالات الغيبية، وينظر إليها بوصفها صورة أخرى للمعنى، تصلح لأن تكون نسقًا من أنساق المعنى الأصلى، ترفقًا منه بالعقل والنفس. وهذا الأمر هو الأساس الذى قامت عليه المدرسة التوليدية التحويلية؛ يقول، معلِّقًا على قوله-تعالى:" وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**". سورة الزمر: ٦٧ **:" لما كان العظيم من الأشياء- إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدَّره فى نفسه حق تقديره -عظَّمه حقَّ تعظيمه؛ قيل:" وما قدروا الله حقَّ قدره". وقُرئ بالتشديد على معنى: وما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ثم نبههم على عظمته، وجلالة شأنه، فقال:" والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويَّات بيمينه".**

والغرض من هذا الكلام- إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه- تصوير عظمته، والتوقيف على كُنْه جلاله لا غير؛ من غير ذهاب بالقبضة، ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يُروى: أن جبريل جاء إلى رسول الله- ﷺ- فقال: يا أبا القاسم إن الله يُمسك السموات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع؛ ثم يّهُزهن، فيقول: أنا الملك!، فضحك رسول الله- ﷺ- تعجبًا مما قال، ثم قرأ- تصديقًا له:" وما قدروا الله حقَّ قدره". وتلا الآية.(٩٢) وإنما ضحك أفصح العرب- ﷺ- وتعجَّب؛ لأنه لم يفهم منه إلاَّ ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هزٍّ، ولا شيءٌ من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيءٍ وأخره على الزبدة والخلاصة، التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان؛ ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانًا لا يوصِّل السامع إلى الوقوف عليه إلَّا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بابًا- في علم البيان- أدق ولا أرق، ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع، وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله- تعالى- في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخييلات، قد زلت فيها الأقدام قديمًا. وما أتي الزَّالون إلاَّ من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علمًا؛ لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه، إذ لا يحُلُّ عقدها المؤرَّبة-أى: الدقيقة المحكمة- ولا يفكُّ قيودها المكربة إلَّا هو؛ وكم من آية من آيات التنزيل، وحديث من أحاديث الرسول قد ضِيم وسِيم الخسف، بالتأويلات الغثَّة والوجوه الرَّثَّة؛ لأن من تأوَّل، فليس من هذا العلم فى عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلًا منه من دبير".(٩٣) ونحو ذلك قول العرب: ليلة ذات أزيز، أى: قُر شديد.(٩٤) فقد بالغ فى عرض المعنى، وجمْعه فى ذهن

---

(٩٢) رقم: ٢٧٨٦، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم: (٥٠)، كتاب صفة القيامة، والجنة، والنار:١٩،انظر: صحيح مسلم، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج، القشيرى، النيسابورى(ت ٢٦١هـ) تحقيق، د : محمد فؤاد عبد الباقى، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م: ٢١٤٧

(٩٣) انظر : الكشاف ، ج ٤ :١٢٩- ١٣٠

(٩٤) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية: ٢٠٥

المتلقى وتوكيده، وإيراده من روافد متباينة، لتقوية احتمال ما من بين الاحتمالات المتواترة، بالإضافة إلى رغبة المؤلف فى استجلاب الاهتزاز بتركيب التخييل من السامعين.([٩٥])

المطلب الرابع: دلالة تركيب التخييل واتّساع طاقة التلقى(الافتراض المسبق):

يُقرر الزمخشرى أن فى دلالة تركيب التخييل اتساعًا دلاليًّا، يترك لمؤلف النص مساحة للتصرف والتأويل، وأفضل ما يقدمه للمعنى هو أنه يقوم مقام المكمِّل المحذوف، بوصفه نوعًا من التصرف المقصود، الذى يعمد إليه المؤلف، ليترك للمتلقى سبيلا للتأويل والمفاضلة بين الاحتمالات المتاحة من فجوات الحذف؛ ممَّا يحقق نوعًا من إمتاع الذهن، وتنشيط الفكر، وإطراب الوجدان، ويعكس سعة العقل، بدا ذلك، فى تعليقه على قوله- تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". سورة المائدة:٦٩:"واضح حذف خبر إن، وعدم وقوع قوله: (الصابئون) فى حيّز الاسمية لوقوعه مرفوعًا؛ لذا يقدر خبر إن محذوفًا، وهو: إن الذين آمنوا والذين هادوا حكمهم كذا، والصابئون كذلك. يقول:" و(الصابئون) رُفِع على الابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير، وأنشد شاهدًا لذلك، قوله:

وَإِلّا فَاعْلَمُوا أنّا وَأَنْتُمْ	**بُغَاةً مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ.([٩٦])**

أى، على حدِّ تعبير سيبويه(ت١٨٠هـ): فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك([٩٧])، فإن قلت: هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن وأخواتها ؟ قلت: لا يصحُّ ذلك قبل الفراغ من الخبر. لا تقول: إن زيدًا وعمرًا منطلقان، فإن قلت: لم لا يصح والنية به التأخير؛ فكأنك قلت: إن زيدًا منطلق وعمرو؟ قلت: لأنى إذا رفعته؛ رفعته عطفًا على محل إن واسمها، والعامل فى محلها هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل فى الخبر؛ لأن الابتداء ينتظم الجزأين فى عمله، كما تنتظمهما إن فى عملها، فلو رفعت (الصابئون) المنوى به التأخير بالابتداء؛ وقد رفعت الخبر بـ إن؛ لأعملت فيهما رافعين مختلفين. فإن قلت: فقوله: (والصابئون) معطوف لابد له من معطوف عليه، فما هو؟، قلت: هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: (إن الذين آمنوا) ...إلخ، ولا محل لها، كما لا محل للتى عُطفت عليها. فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة؛ فما فائدة هذا التقديم؟؛ قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يُتاب عليهم؛ إن صحَّ منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا، وأشدهم غيًّا، وما سُمُّوا صابئين؛ إلا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها، كما أن الشاعر قدَّم قوله:

([٩٥]) انظر: الكشَّاف، ج٤: ١٣١

([٩٦]) البيت من الوافر؛ ومنسوب لبشر بن أبى خازم الأسدى، بتقدير: بُغاة ما بقينا وأنتم. والشاهد فيه: وقوع الضمير المنفصل، الذى محله الرفع، وهو: أنتم، بين اسم إن و خبرها مسبوقًا بواو العطف؛ فهو فى تقدير جملة، أى: وأنتم بُغاة، عطفت على جملة: أنا بغاة. وهو فى ديوانه، برواية: ما حيينا، بدلًا من: ما بقينا، وهو من قصيدة رقم: (٣٤) يهجو بها أوس بن حارثة، انظر: ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى، عنى بتحقيقه: الدكتور عِزَّة حسن، دمشق، سوريا، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ضمن مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، رقم (١): ١٦٥ وانظر: الكتاب، ج٣: ١٥٦، وانظر: شرح التسهيل، ج١: ٤٣٢

([٩٧]) انظر: الكتاب، ج٢: ١٥٦

وأنتم، تنبيهًا على أن المخاطبين أوغل فى الوصف بالبغاة من قومه؛ حيث عاجل به قبل الخبر، الذى هو بغاة؛ لئلا يدخل قومه فى البغى قبلهم؛ مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدمًا .([٩٨]) ويأخذ الزمخشرى دلالة تركيب التخييل إلى رحاب أوسع، وفيوضات أعم وأعمق، ويجعل منها أداة للموازنة والترجيح بين معنيين، قد يُظن- من ظاهرهما- أنهما متفقان، فإذا ولجت طاقة التلقى عمق التركيب ألفت جمالًا يُعين العقل على الاقتناع، والنفس على الالتذاذ والاسترواح، يقول، معلقًا على قوله- تعالى:" فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (*) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ".سورة الواقعة: ٥٤-٥٥،فإن قلتَ: كيف صحَّ عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات متفقة، والصفتان متفقتان، فكان عطفًا للشيء على نفسه؟ قلتُ: ليست متفقتين؛ من حيث إن كونهم شاربين للحميم- على ما هو عليه من تناهى الحرارة وقطع الأمعاء- أمر عجيبٌ؛ وشُربهم له على ذلك؛ كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب-أيضًا- فكانتا صفتين مختلفتين".([٩٩])

المطلب الخامس: دلالة تركيب التخييل وطرائق إقناع المتلقى(من واجبات المؤلف):

يحتاج الإقناع -والاقتناع القائم علي إدراك الصورة الكلية للمقاصد- إلي مراعاة دور العقل، وتوفير أبعاد اللذة، في استمالة طاقة التلقي لدي متلقّ خاصٍّ، والتأثير فيها، وقد نجح الزمخشري في إضافة دلالة أخرى، هي: دلالة تخييل القصة؛ ليُضفي علي حجاجه معينًا عقليًّا آخر، قائمًا علي تشويق النفس، وفتح آفاق العقل؛ ليتيقظ للمتابعة والتفاعل مع تفاصيل المقاصد المضمنة في أفعال القول، استنادًا إلى مُعينات التوضيح للمقاصد السطحية، وصولًا إلي القصد المركزي، متنقِّلًا فى سُلميات دلالية وتداولية، تدفعه هذه السلميات إلى اقتناص المعنى الكلى، مهما بالغ مؤلف النص فى إخفائه، أو أوغل فى الاحتياط له؛ مرتكزًا على طاقات متعددة من النفس والعقل والفكر والخلفيات المسبقة، وسياقات التأثر والتأثير. حيث وجدناه يُدلل على رأيه فى كثير المواضع".([١٠٠]) وهذا ما ينادى به تشومسكى فى تأكيده وجود صلة حيوية بين علم اللغة وعلم النفس، حيث أشار إلى أن الدافع وراء دارسة اللغة هو اندماجها وتداخلها مع علم النفس العميق- أو الأعلى- ومحدداته، فالنفس، بالاتحاد مع العقل؛ هما المسئولان عن تحديد الشكل الانفعالى، والصوتى، والصرفى، والتركيبى للجملة، بالإضافة إلى كونهما المحددين للمحتوى الدلالى لها، وهذا ما يؤيّده الاستعمال وكفاءة الأداء.([١٠١])

وانطلاقًا من إدراكه لقيمة البعد التخييلي؛ في تحقيق اللذة لدي المتلقي وإمتاعه، ساق قصة الحية التى تشكل ضربًا آخر من دلالة التخييل، إذ إنه ليس من معهود الناس أن الحية تفعل فعلًا ما، فيرتد إليها بصرُها، وكأنه يلفت النظر إلى أن إدراك الله- تعالي- قائم علي منطقية العقل، مع الاحتفاء بما نسميه اللامتوقع، وكأنه يعضّد رأيه بقصص مشهورة، تقوم- في تصديقها- علي التخييل، يقول:" يُحكي أن الأفعي إذا أتت عليها ألف سنة؛ عميت؛ وقد

([٩٨]) الكشاف،ج١ : ٥٨٠

([٩٩]) الكشاف، ج٤ : ٣٩٦ - ٣٩٧

([١٠٠]) انظر: الكشاف، ج ١: ١٧- ١٨

([١٠١]) انظر: من المدارس الألسنية، المدرسة التوليدية التحويلية: ٨-٩

ألهمها الله أنَّ مسْح العين بورق الرزايانج الغضِّ يردُّ إليها بصرها؛ فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة– علي طولها وعلي عماها– حتي تهجم في بعض البساتين علي شجرة الرزايانج، لا تخطئها؛ فتحكُّ بها عينيها، وترجع باصرة بإذن الله".([١٠٢])

المطلب السادس:دلالة موازية لقرينة التلاقح الفكرى(أدب التفاوض الحجاجى):

استعان الزمخشري بدلالة تركيب التخييل، بوصفه أحدَ روافد الوسائل البيانية في رصد المقاصد، من التراكيب اللغوية، وجعل منه دليلَ حذق للمؤلف؛ وحرصٍ منه على تقديم محاولة إقناعية لمتلقيه؛ بأن يقدِّم له ما يجلب له المعنى من روافد متعددة، وهنا يصح أن نقول: إن قرينة دلالة تركيب التخييل هى القرينة التى يقع عليها العبء الأكبر فى التعبير عن القصد، والدلالة على عناصره، بدا هذا الأمر فى تناوله بعض الآيات من سورة الأعلي، يقول– تعالى:" سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (*) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (*) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (*) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى". سورة الأعلى:١-٤ **فقد أورد مطلبًا عقديًّا ذا مرجعية عقلية، وأردفه بثلاث صور بيانية، شكَّلت ثلاثة مقاطع من الصور التعبيرية، التى تعتمد علي دلالة تركيب التخييل، فإذا ما فكر المتلقي في الأمر- في الآية الأولي- أعجزته قدرته عن الاعتراض، فإذا بالخطاب القرآني يمدُّه بتخييلات الخلق والتسوية والاستواء، (المقطع الأول) وتلك عوالم تأخذ العقل كل مأخذ؛ وتلقي به في راحة التسليم، بما يُراد له من مقاصد، أشارت إليها الآية الأولي، ويكفي قصدية الإقناع - في الصورة الأولي- تأمل عملية الخلق، عبر أطوارها ومراحلها، ثم تردف الصورة البيانية الثانية (المقطع الثانى) تحدثنا عن تقدير أمر الكون، هو فيه ما فيه من الاتساع والتعجيز لفوران العقل، الذي تدفعه تلك الصور إلي التسليم والاقتناع. فجاءت الصور المتتابعة لتقوي من بلاغة الحقيقة. ثم تأتى الصورة الثالثة، صورة المرعى (المقطع الثالث)، لتخاطب حاسة البصر(إقناع الصورة)، ليدرك القضية العقلية بدلالة أخرى حسية مبصرَة معنوية، وقد تضافرت المقاطع الثلاثة فى عرض صور حسية، وفرت معنى موازيًا لقضية عقلية، حيث إن تركيب التخييل كان خيال صورة، اعتمد علي التوالي الجُمَلي في رسم الصورة، التى ينبغي أن يكون عليها حجاج الحقيقة.يقول الزمخشري:" إن المقصد من الآية الأولي، هو تنزيه الله– تعالي- عمَّا لا يصح فيه من المعاني، التى هي إلحاد في أسمائه؛ كالجبر والتشبيه، ثم يسوق الخطاب القرآني خيالًا قائمًا علي حقيقة الإيمان، وهو أن الله– تعالي– قاهر مقتدر، ولا يصح أن نقصر تفسير العلو؛ بمعني العلو في المكان، ويخبر الخطاب القرآني أن الاستواء علي العرش حقيقة، ويقوي الخطاب القرآني قصدية الاحتياط للمعنى الجوهرى بصورة بيانية أخري، وهي صورة الخلق، وأن الله– تعالي- خلق كل شيءٍ، فسوي خلقه تسوية، ولتمام عملية الاقتناع أردف الخطاب القرآني بالصورة الثالثة(الحجة الثالثة) وهي قضية التقدير**

([١٠٢]) الكشاف، ج٤: ٦٣١

والهداية، فساق الحجج والبراهين، التى انصهرت في امتداد دلالة تركيب التخييل من المقصد إلي آية إنشاء المرعي".([١٠٣])

يُفهم - من تفسير الزمخشري للآيات الأولي، من سورة الأعلي- أنها قد شكَّلت طبيعة حجاجية، تآذرت حججها لتأييد المقاصد منها، وقد تعلقت الأسباب بمسبباتها المنطقية، فيستنتج المتلقي من معني كل آية ممهدًا دلاليًّا لمعني الآية التى تليها؛ وقد قامت بين الآيات علاقات منطقية ودلالية، شكَّلت علائق استدلالية حجاجية. وقد جاءت الآية الأولي طلبية، تستوجب وظيفة حجاجية، وجاءت الثانية لتحمل وظيفة إخبارية إعلامية، تستوجب التسليم لمضمونها؛ وجاءت الثالثة، لتحمل وظيفة إقناعية؛ مردُّها إلي وظيفة جمالية، وشكَّلت الآيات- فى مجموعها- وظيفة عقلية تخييلية تفاعلية، وشغلت الآية الأولي الدور الأساس، وقد شكَّلت الآيات الثلاث التي تليها دورًا ثانويًّا.

وقد أدَّي تركيب التخييل- بدءًا من الآية الثانية- وظيفة حجاجية، وهي التى تتحكم في الوظائف الأخري للقوالب اللغوية، وكان له أثر كبير في توجيه ذهنية المتلقي نحو القصد من الآيات الكريمة، وهو تفرُّد الله-تعالى- بالقدرة على الخلق، وقد دلَّل-تعالى- على ذلك بثلاث صور أخرى، تقرِّب عملية الخلق، والذى هو الإنشاء من العدم، ونقل ذهن المتلقى إلى دلائل محسوسة، ومشاهدة، يستطيع أن يراها، تلك الصور التخييلية قامت بدور المفاوض الدلالى؛ الذى يوفِّر هيئة شكلية تحمل مضمونًا قضويًّا، مراعيًا حال المتلقى، من خلال انتخاب عناصر لغوية دقيقة وناجحة فى التعبير عن القصد، مع إعطاء المتلقى اقتناعًا قائمًا على أبعاد نفسية، وهذا ما نراه فى تعليقه على قوله- تعالي:" قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ". سورة الحجرات:١٤، **فبيسط الزمخشري دلالات الآية السابقة، ويشير بوجود أنساق دلالية صغرى تشكِّل نسقًا دلاليًّا متكاملًا؛ كل نسق يؤكِّد سابقه، مستخدمًا أسلوب التفاوض المنطقى.**

وتقوم فكرة الحجاج على امتلاك المؤلف مهارات التفاوض الدلالى، وقد يتجلى هذا الأمر حين يرتكز القصد على البراهين والمنطقية العقلية، وحُسن صياغة المعنى النفسى، أو ما يمكن أن نُطلق عليه: الصياغة النفسية للقصد؛ فتركيب التخيُّل، ثم فعل الإنجاز، كلها أمور نفسية فى جوهرها، وبالتالى؛ فليس الحجاج فى النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها؛ ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابى، والتحامها مع الطرح المقدم؛ فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية فى الحسبان؛ فإن الحجاج يكون بلا غاية، وبلا تأثير.([١٠٤]) مع إعطاء القوالب اللغوية والإشارية نمطًا دلاليًّا يشمل اللامتوقع، ليستوعب أفاق التخييل لدي طاقة التلقي، وقد تحقَّق فى سورة الأعلى حُسن الاستهلال، فعرض الخطاب القرآنى، قضية عقلية خالصة، تُخاطب المخزون

([١٠٣]) انظر : الكشاف، ج٤: ٦٣١

([١٠٤]) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره فى البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، م٢٨، ع٣، يناير/مارس، القاهرة،٢٠٠٠م:٦٨

الفكرى لدى طاقة التلقى، وكأن الله– تعالى- يستدرج الذهن للتسليم بالقضية الأولى، فأردف له عددًا من الصور المحسوسة، إذ العقل أقرب قناعة لما يحسه ويشاهده.

إن المقصد المضمَّن- في القوالب اللغوية- قد استلزم تحريك القوالب بالتقديم، لأن من عادة العرب أن يقدِّموا ما هو أوقع بعقولهم وأفئدتهم، وأشغل لبالهم؛ لذا يُقال: إن القصد المضمن في الآية الأولي هو النتيجة التي يهدف الخطاب القرآني إلي إقناع المخاطب بها، ودفعه إلي العمل بها، تعظيمًا لما يقوم به المتلقى من فعل سلوكى؛ ويقضي الاستدلال أو المنطق؛ أن يُرفق ذكر النتيجة بذكر الأدلة والحجج التى تخدمها، وتؤدي إليها، ولذلك أورد الله– تعالي- مجموعة من الحجج مباشرة بعد الآية الأولي، وهي الآيات المتواليات: الثانية: " الذي خلق فسوي". والثالثة:" والذي قدَّر فهدي". والرابعة:" والذي أخرج المرعي فجعله غثاءً أحوي". وهناك حجج أخري، يُمكن استخراجها وكلها تخدم النتيجة السابقة، وهي القصد المركزي".([١٠٥]) والمُطالع لمعاني الآيات السابقات يدرك أن الزمخشري قد جعل من الامتداد التخييلي مطية دلالية، تصل به طاقة التلقي، تصاعديًّا، إلي القصد العام والمعنى المركزى.

يُفهم من كلام الزمخشري أن المقطع الأول من سورة الأعلي- والذي تمثله الآية الأولي- قد جسَّد علاقة أُنشئت على مكونات مرتكز الحجاج التداولى، تتوقف فيه عملية التحاجج على ضرورة صدمة المؤلف لأفق انتظار المتلقى، بأن يعرض نتيجة مقدمة(محتوى خبرى)؛ راغبًا فى إيقاظ ذهن المتلقى، ودفعه إلى البحث عن دلائل هذا الخبر، وتقديرًا من لدن المؤلف للعلاقة بينه وبين متلقيه، ذكر الخطاب القرآنى عددًا من الأدلة والحجج، وليس من شك فى أن تقديم النتيجة ضرب من دفع طاقة التلقي إلي التسليم به؛ إذ إنه من المنطق أن ما سِيق من حجج تالية توفر بيئة منطقية، تمنح ذهن المتلقى هدوءًا، بأن تقدم له دلالات تخييلية، تُعجز العقل عن الاعتراض؛ كما أن جميع الحجج والبراهين الآتية؛ قد خدمت النتيجة المحركة بالتقديم للأهمية، وأدَّت إليها.

وقد نحا تركيب التخييل منحي الحجاج القائم علي تكثيف الحجج والأدلة والبراهين في اتجاه القصد المركزي، الذي يرومه المتكلم، فكل الآيات تُشير إلي ضرورة التسليم للأعلي وتسبيحه، لأنه–تعالى- ذكر أدلة وبراهين، تعظِّم من مصداقية النتيجة المذكورة أولًا، وما من شأنه أن يستقطب العقل؛ فيقتنع، والقلب؛ فيطمئن، فى حين تشكَّل القصد من مجموع هذه الحجج، وارتبط التخييل فيه بالمقاطع القرآنية، التى تحمل القصد من الخطاب، وأسهم فى إنجاز فعل الحجاج وإنجاحه؛ مما أتاح لمعونة التخييل الحجاجى تكثيف الدلالات وعرضها في حالة من التسلسل وصدق المعاينة. فجاء المقطع الثانى من الآيات، متضمنًا دلالة تخييليَّة، تقوم على توضيح مجموعة من المعانى المرتبطة بالنتيجة الأولى، وكأن التخييل– هنا- قد أجاب عن التساؤل الآتى: كيف تسبح ربَّك؟ قد استدل بالمقطع الثانى علي المقصد العام، وحافظ على المسار الحجاجى، الذى يجعل من أبعاده رابطًا معنويًّا، وكأن الزمخشرى يُقيم علاقات حجاجية، علاقة بين نتيجة وعلاقات حجاجية فرعية؛ تمثلت فى

([١٠٥]) انظر: الخطاب والحجاج، د: أبو بكر العزاوي،ط١، مؤسسة الرحاب، بيروت، لبنان،٢٠١٠م:١٩

قوله- تعالى:"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (.) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (.) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (.) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى**".** سورة الأعلى:١-٤ **وهى علاقات تقوم على الاستلزام المنطقى، فقد قصد تركيب التخييل استمالة المتلقى، ودفعه إلى التسليم بقضية التوحيد، التى جسدها إقراره- تعالى- بأنه هو الأعلى من كل شيءً، إذ هو الخالق لما تراه أعينهم، من خلق الإنسان من العدم، وخلق المرعى والنبات من اليبس، وهو عدم، لذا علا على كل شيءٍ.**

المطلب السابع: دلالة تركيب التخييل نسق فى ضوابط الاستلزام التخاطبى:

وفَّر الامتداد الدلالى لتركيب التخييل بيئة دلالية أخرى، أبرزت انتهاج الزمخشري نهج التفاوض فى عملية التواصل الحواري، مع خَصْم افتراضي، ولعل في هذا بعدًا آخر من أبعاد آلية التخييل في تقوية عملية الحجاج؛ وبدا الزمخشري- في فكرته هذه- مفاوضًا، يمتلك أبعاد التحاور والاستمالة والإقناع، ويستثمر كل طاقة في ذلك؛ وكأنه يرتقي بذهن المتلقي سلالم الدلالة الكلية، من الأنساق الجزئية، التى تشكل نسق القصد الكلي، فتتصاعد درجة الإعلام للخبر، مما تُشير إليه محددات المدرسة البنيوية التفكيكية. فبعد أن يسوق مُعينات الاقتناع القائم علي التخييل يردُّ الأمر إلي المقاصد من الآيات، ويوضّح القصد من إيراد هذه الصور البيانية، وهى على التتابع: الخلق، والاستواء، والهداية، والمرعي، يقول:" وهدايات الله للإنسان إلي ما يُحد من مصالحه، وما لا يُحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع وشوط بطين، لا يحيط به وصف واصف، فسبحان ربي الأعلي، ويمتد التخييل-هنا- " ليتناول المرعي، وكيف أن القرآن استعار له لونًا مختلطًا لتعصَف النفس والذهن ألوانها، فهو بين سواد شديد و خضار أشد".([١٠٦])

المطلب الثامن: دلالة تركيب التخييل نسق من أنساق البنية الكلية:

قد تقرّب فكرة الحاتمى(ت٣٨٨هـ) عن مصطلح الإيغال، من إدراك الزمخشرى كوْن تركيب التخييل آلية من آليات احتياط المؤلف لمعناه، فإذا كان الإيغال مقصود به محاولة المؤلف عرض معناه، وتأكيد تمامه بإيراد الزيادات اللفظية من السوابق واللواحق، والتكرير اللفظى أو المعنوى؛ رغبة من المؤلف فى بلوغ الغاية القصوى فى عرض المعنى([١٠٧]) فقد رأينا إدراك الزمخشرى لهذه الفكرة، إذ يأتى تركيب التخييل مكملًا لمعنى كليّ، سبق سوقه فى سياق مقالى، وأنه يُضفى على القوالب اللغوية تجسيمًا، وكأنه يجعل لها جسمًا، تتكلم من خلاله، و تشغل دورها فى خدمة المقاصد الكلية لمؤلف النص، نحو ما علَّق به على قوله- تعالى:" فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ". سورة آل عمران: ٣٦//٣، **فقد نقل ما يروى من الحديث من أنه: ما من مولود يُولد؛ إلَّا والشيطان يمسُّه حين يُولد؛ فيستهل صارخًا من مسِّ الشيطان إيَّاه، إلَّا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كلُّ من كان فى صفتهما، كقوله-تعالى:"** قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي

([١٠٦]) انظر: الكشاف ،ج٤: ٦٣١- ٦٣٢

([١٠٧]) انظر: حلية المحاضرة فى صناعة الشعر، لأبى على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى(٣٨٨هـ)، تحقيق، د: جعفر الكِتابى، دار الرشيد ، سلسلة كتب التراث، (٨٢)، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٧٩م، ج١: ١٥٥

الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(.)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ". سورة الحجر:٣٩-٤٠ **واستهلاله صارخًا من مسِّه تخييل وتصوير لطمعه فيه؛ كأنه يمسُّه، ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممَّن أغويه، ونحوه من التخييل؛ قوله:**

لِمَا تُؤْذِنُ([١٠٨]) الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا	**يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ.([١٠٩])**

وأما حقيقة المسِّ والنَّخس- كما يُتوهَّم أهل الحشو- فكلَّا، ولو سُلِّط إبليس على الناس ينخسهم؛ لامتلأت الدنيا صُراخًا وعياطًا، مما يبلونا به من نخسه".([١١٠]) ويبرز- من خلال كلامه السالف الذكر- أنه لجأ إلى التأويل، وصرف الكلام عن حقيقة معناه، وحمل الكلام على أنه تخييل، وكأنه أبى أن يقرر أن مسَّ الشيطان واقع، ومنصوص عليه، وإلَّا فلم شُرعت الاستعاذة منه؟ يقول- تعالى:" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ". سورة الأعراف: ١٧٢ **ويرى أن فى تركيب التخييل دليلًا على المعنى، فقد خاطب الله- تعالى- به عقول الناس وأنفسهم، وجاء قولهم: بلى شهدنا، جواب متخيل، وكأن المتلقى شاهد لأصواتهم التى تشهد بربوبية الله خالقهم، يقول:" ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلًا، وإشهادهم على أنفسهم، وقوله:" ألست بربكم قالوا بلى شهدنا". من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك: أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت به عقولهم وبصائرهم التى ركَّبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى؛ فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرَّرهم، وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا:بلى، أنت ربنا. شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك".([١١١])**

ومن لطائف دلالة تركيب التخييل عنده أن تركيب التخييل يوفِّر صورة جزئية للمعنى، يعرض الزمخشرى القصد فى هيئة محسوسة، من التمثيل والتخييل، فينصب لهم الأدلة المشاهدة، التى تقويها الأدلة التى تخاطب العقول والبصائر، وتُعين مؤلف النص على عرض مقاصده، فتغدو آلية من آليات الإقناع، التى يخضع لها عقل المتلقى، ليصل إلى مرحلة الاقتناع، يقول فى هذا المعنى:" وباب التمثيل واسع فى كلام الله- تعالى- ورسوله- ﷺ- وفى كلام العرب، ونظيره: قوله- تعالى:" إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ". **سورة النحل: ٤٠، وقوله: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**).سورة فُصِّلت: ١١ وقوله:**

([١٠٨]) والمراد : تعلم.

([١٠٩]) البيت لابن الرومى، من قصيدة له، يمدح بها صاعد بن مَخْلد، من الطويل، وفى رواية الديوان: من شرورها.، يقول: إنما يكون بكاء الطفل ساعة الولادة؛ لما يعلم أن الدنيا موضع الفتن، ومكان المحن. انظر: ديوان ابن الرومى، أبى الحسن على بن العباس بن جريح، تحقيق د: حسين نصَّار، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٢: ٥٨٦

([١١٠]) الكشَّاف ، ج١ : ٣٢٨

([١١١]) الكشَّاف : ج٢ : ٨٢

إِذَا قَالَتِ الْأَنْسَاعُ(١١٢) لِلْبَطْنِ الْحِقِ	قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا(١١٣) قَرْقَارِ. (١١٤)

ومعلوم أنه لا قول تم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى؛ وقد أكَّدت الأدلة المشاهدة صحة الدلالة القارة فى العقول".(١١٥) وهذا ما تنادى به السياقات التداولية، من ضرورة أن يُناسب المؤلف بين العناصر المستعملة، والدلالات الاجتماعية السائدة. وإدراكًا من الزمخشرى لدور دلالة تركيب التخييل فى عرض صورة جزئية للمعنى وموازية له- تُكمل دلالته، بجوار دلالة الوحدات اللغوية، فتزيد من قوة المعنى، وتقربه، أو تُعين على إدراكه- رأيناه يُكثر من التمثيل فى تحليله لمعانى الآيات، وليس من شك فى أن هذا الأمر يراعى طاقة التلقى التى تميل إلى المشابهة، وأن تصل إلى الاقتناع من خلال الاقتناع البصرى، أو التخييل المتعقل، انظر إليه فى قوله- تعالى:" أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ". سورة الواقعة: ٨١ حيث نلحظ- من كلام الرجل-إدراكه للبعد التخييلى فى وصول المعنى المقصود، يقول:" (أفبهذا الحديث)- يعنى: القرآن،(أنتم مدهنون)؟ أى: متهاونون به، كمن يُدْهن فى الأمر، أى: يُلين جانبه، ولا يتصلب فيه، تهاونًا به، (وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِبُونَ)، على حذف المضاف، يعنى: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب؛ أى: وضعتم التكذيب موضع الشكر".(١١٦) فقد جعل تخييل صورة المرء- وهو يتهاون بالأمر- سببًا حاسمًا فى إدراك المعنى الحقيقى من المداهنة فى تقبل كلام الله– تعالى.

---

(١١٢) وهى: النعال، أو الحبال التى تَشد الرحال، انظر: لسان العرب، مادة، نسع، (ن، س،ع)، ج٦: ٤٤١٠

(١١٣) ذكره سيبويه فى حديثه عن الألفاظ المعدولة، من بنات الأربعة، ولم ينسبه إلى قائل معين، وهو فى وصف السحاب، إنما يُريد: قالت له: قَرْقِرْ بالرغد للسحاب، وجعل مثله خَراج، أى: اخرجوا. انظر: الكتاب، ج٣: ٢٧٦

(١١٤) وجدته فى كتاب الكُنَّا ش، باختلاف فى رواية عجزه: واختلط المعروف بالإنكار، ومنسوب إلى أبى النجم العجلى، من بحر الرجز، كأنه يُريد: قالت للسحاب: قرقار، كأنه يأمر السحاب بذلك، أى: صُبَّ ما عندك من الماء؛ مقترنًا بصوت الرعد، وهو قرقرته، والمعنى: ضربته ريح الصبا فدرَّ عليها، فكأنها قالت له، وإن كانت لا تقول، ففى البيت تخييل جمالى، إذ يتخيل الشاعر أن أنساع النعل من الرجل الجشع تناجى صاحبها أن يُسرع؛ ليلحق الطعام، فى حين أن ريح الصبا تدعوه إلى الهدوء والمتعة بها، وينقل الملك المؤيد كلام سيبويه: كل فعل ثلاثى، لك أن تبنى منه فَعَال، بمعنى: افْعل، كقولك: ضَراب، اسم، اشرب، وقَعاد، اسم، اقعد؛ وقَوَام، اسم، قُم، وعند غيره، يؤخذ سماعًا، كما فى الرباعى؛ إذ لم يأتِ منه إلَّا : قَرْقَار، وعَرْعَار؛ فقولهم: قرقار، يُبنى على الكسر، ولم يُسمع العدل من الرباعى إلَّا فى: عَرعَارٍ، وقَرْقارٍ. انظر: لسان العرب، مادة: قرر،ج٥: ٣٥٨٢، وانظر: الكُنَّا ش فى النحو والصرف، للملك المؤيد، أبى الفداء عماد الدين، إسماعيل بن على، (ت٧٣٢هـ)، تحقيق، د: على الكبيسى، ود: صبرى إبراهيم،(د. ط)،مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، الدوحة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م: ١٤٧

(١١٥) انظر: الكشاف ، ج٢ : ٨٢-٨٣

(١١٦) انظر: الكشاف ،ج ٤ : ٤٠٠

المبحث الثانى : دلالة تركيب التخييل والاعتزال(نظرية الاستدراج) وفيه ما يلى:

المطلب الأول: دلالة تركيب التخييل والاستدلال العَقَدِى:وظَّف الزمخشرى دلالة تركيب التخييل، بوصفها تراكيبَ لغويةً، تُشير إلى دلالات بصرية؛ لخدمة مذهب الاعتزال، والانتصار له، والذود عنه، إيمانًا منه بقوة المعانى المنبثقة من دلالات الصورة البصرية، فقد وقفت آيات المتشابه حجرًا وعرًا أمام تحليلاته؛ فإذا بالرجل يستثمرها لصالح معتقده، فما وافقه جعله حقيقة مطلقة، وما عارض معتقده، أكثر فيه من المجاز والتأويل، وإن خالف ما أجمعت عليه الأمة، ومن ثم جعل التخييل إطارًا من أطر تطوير المجاز، ومُعَضِّدات التأويل؛ وقرَّر أن صور التخييل تحمل الكثير من الشحنات العميقة، فنراه يتأوَّل اليد بالقدرة، والرؤية بالوقوع فى النفس، والتكليم بأن الله– تعالى- منح سيدنا موسى- عليه السلام– هيئات صوتية خاصة.([117]) بل وجدناه يستثمر آلية تركيب التخييل فى إشكالياته العقدية، ولا سيما ما اختص منها بالتعرُّف على ذات الله–تعالى– أو صفاته. يقول، فى قوله– تعالى:" إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ". سورة الشورى:٤٢/١١ **قالوا: ومثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يُريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة فى ذلك، فسلكوا به طريق الكناية؛ وأنهم إذا نفوه عمَّن يسدُّ مسدَّه؛ وعمَّن هو على أخصّ أوصافه، فقد نفوه عنه، ونظيره قولك للعربى: العرب لا تخفِر الذمم. كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر، ومنه قولهم: قد أيفعت لداتُه وبلغت أترابُه، يُريدون: إيفاعه وبلوغه، وفى حديث رُفيقة بنت أبى صيفيّ بن هاشم، فى سُقيا عبد المطلب؛ حيث أصاب قريشًا الجدب والقحط، ورقَّت العظام:" ألا وفيهم الطيبُ الطاهر لذاتُه".([118]) والقصد إلى طهارته وطيبه؛ فإذا عُلم أنه من باب الكناية؛ لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيءٌ، و(ليس كمثله شيءٌ) إلَّا ما تُعطيه الكناية من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتاقبتان على معنى واحد، وهو نفى المماثلة عن ذاته؛ ونحوه قوله– تعالى:"** وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

([117]) انظر: الكشَّاف، ج١: ٥٢٦

([118]) الحديث فى معجم الطبرانى، المعجم الكبير، فى باب الراء، حديث رُفيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد مناف، حديث رقم: ٦٦١، انظر: المعجم الكبير، للحافظ، أبى القاسم، سليمان بن أحمد الطبرانى،(٢٦٠هـ/ ٣٦٠هـ) حقَّقه و خرَّج أحاديثه: حمدى عبد المجيد السلفى، (د. ط)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت)، ج٢٤: ٢٥٩– ٢٦٠، وقد ذكره فى الأحاديث الطوال، رقم : ٢٦، من حديث الاستسقاء؛ من دون هذا اللفظ، وذكر لها شعرًا فى مضمون هذا القول، ومن ذلك قولها :

مُبارك الأمر يُستسقى الغمام به .. ..ما فى الأنام له عدلٌ ولا خطرُ.

انظر: الأحاديث الطوال، للحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى،(٢٦٠– ٣٦٠هـ) حقَّقه و خرَّج أحاديثه: حمدى عبد المجيد السلفى، ط٢، المكتب الإسلامى، بيروت، دمشق، عمَّان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، رقم الحديث: ٢٦: ٥٩- ٦٠ وقد ذكر الزيلعى (ت ٧٦٢هـ) أن الحديث فى سقيا عبد المطلب، ودونه ضمن أحاديث سورة الشورى، حديث رقم: ١٦١/١١٤٢. انظر: كتاب تخريج الآثار والأحاديث الواردة فى كتاب الكشاف للزمخشرى، المسمى: الإسعاف بأحاديث الكشاف، لجمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف الزيلعى(ت ٧٦٢هـ) تحقيق ودراسة من أول سورة سبأ إلى آخر سورة الناس، رسالة دكتوراه، محمد بن أحمد بن على با جابر، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ نسخة pdf ، م٢: ٥٣٤ - ٥٣٧

الْمُفْسِدِينَ". سورة المائدة: ٦٤ **فإن معناه: بل هو جواد، من غير تصوُّر، ولا بسط لها، وقعت عبارة عن الجود، لا يقصدون شيئًا آخر، حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، ومن لا مثل له؛ ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كُررت للتأكيد كما كررها من قال: وصاليات ككما يُؤَثْفَيْنْ**[١١٩]**،ومن قال: فأصبحت(فَصُيِّرُوا) (مثل) كَعْصَفٍ مَأْكُولٍ".**[١٢٠]

وبدت دلالة تركيب التخييل عند الزمخشرى أشد خصوصية، فقد استثمرها-بقصد- ليروِّج لمذهب الاعتزال؛ لذا نراه يُكثر من التأويل، والحمل على المجاز؛ وإن خالفت الحقيقة، وهنا لا يمكن التسليم بصحة الافتراض المسبق بين المؤلف والمتلقى، حيث دفع هذا الانحراف إلى دخول ذهن المتلقى فى افتراضات مسبقة مغايرة لأفق انتظاره، ويكون السياق هو المحدِّد لأبعاد الافتراض المسبق، فقد لجأ إلى تأويل معنى كلمة: أعيينا؛ فى قوله- تعالى:" وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ". سورة الطور:٤٨.**"**[١٢١]**) إذ أوَّلها إلى معانى الرؤية، لنفى التجسيم عن ذات الله، وتنزيهه-سبحانه- عن التشبيه، يقول:"مثل،أى: بحيث نراك، ونكلؤك، ولجميع العين، لأن الضمير بلفظ ضمير الجماعة، ألا ترى إلى قوله- تعالى:"** أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"؟ سورة طه: ٣٩

المطلب الثانى: نسق دلالة تركيب التخييل وخطاب الجمادات خطابَ من يعقل:

حمل الزمخشرى مُخاطبة الله- تعالى- لصنوف الجمادات خطاب من يعقل على أنه من باب التخييل، مما يقوّى القول بأن لها إرادة و فعلًا، وامتثالًا، بالكره أو بالطاعة، ونظير هذا: قوله- تعالى:" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

---

(١١٩) هذا عجز بيت من الرجز، نسبه سيبويه إلى خطام المجاشعى:

لم يبق من أي بها يحلين...غير رمادٍ وعظام كثفين.

وغير وُدِّ جازلٍ أو دينْ... وصاليات ككما يؤثفين.

وكأن الشاعر يُشير إلى اغترابه، وهجران من أحب؛ فقد ظعنوا، ولم يبق من أثر ديارهم، ما يدل عليهم، أو على شيءٍ من صفاتهم؛ فلم يبق إلَّا الرماد والعظام، والقليل من الأوتاد، والأثفين، بمعنى المتراكمين، أو هو: وعاء الرعى، والصاليات: صفة لمن يوقدن النار من النساء، أو صفة للخيل الصاليات للحرب، تشبيهًا لها بالنسوة الصاليات للنار، وقد ذكره فى : هذا باب ما يحتمل الشعر، واستشهد به على أن العرب قد جعلت ما لا يجرى فى الكلام إلَّا ظرفًا بمنزلة غيره من الأسماء؛ وحمله على أنه من ضرورات الشعر، ومن صور التثقيل فى الكلام، وأن الأصل فى قوله: يؤثفين، من أثفيت، انظر: الكتاب، ج١: ٣٢، وحمله ابن جنى على أن الكاف نابت عن كلمة مثل، والتقدير: كمثل ما يؤثفين. انظر: الخصائص، ج٢: ٢٥٠، وانظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٥٢وذكر ابن منظور أن الأُثْفِيَّة: الحجر الذى توضع عليه القدر، انظر: لسان العرب، ج١: ٢٧، مادة:(أثف).

(١٢٠) البيت من الرجز، وهو منسوب فى كتاب سيبويه لحميد الأرقط، استشهد به على أن أناسًا من العرب؛ إذا اضطروا فى الشعر، جعلوا (الكاف) بمنزلة: مثل، ونحو ذلك: أنت كعبد الله، كأنه يقول: أنت كعبد الله؛ أى: أنت فى حالٍ كعبد الله، انظر: الكتاب، ج١: ٤٠٨، وقد استدل ابن هشام- الشاهد رقم : ٢٧٤- به على زيادة الحرف، وهو الكاف، لأن زيادة الحرف أولى من القول بزيادة الاسم، بل إن زيادة الاسم لم تثبت؛ انظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٥١-١٥٢؛ يشبه فيه الشاعر صاحبته بالعصف المأكول، الذى أكلته الدواب، وداسته؛ فأصبح بددًا، لا كيان له، وهو شاهد على تركيب التخييل، الذى جمع فيه مؤلفه بين مثل والكاف. انظر: الكشاف، ج ٤: ١٩٠

(١٢١) انظر: الكشاف، ج ٤: ٣٥٧

أَتَيْنَا طَائِعِينَ". سورة فصلت:١١ يقول:" هو من قولك: استوى إلى مكان كذا– وليس المراد به التوجه الحسى المعهود، وإنما يُقصد به توجُّه الإرادة–إذا توجَّه إليه توجُّهًا لا يلوى على شيء، وهو من الاستواء الذى هو ضدُّ الاعوجاج ونحوه، قولهم: استقام إليه، وامتد إليه، ومنه قوله– تعالى:" قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ". سورة فصلت: ٦، والمعنى: ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السموات، بعد خلق ما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك، قيل: كان عرشًا، قبل خلق السموات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء، وعلا عليه؛ فأيبس الماء، فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها، فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما، فلم يمتنعا عليه، ووُجدتا كما أرادهما، وكانتا–فى ذلك– كالمأمور المُطيع؛ إذا ورد عليه فعل الأمر المُطاع، وهو من المجاز الذى يُسمى التخييل، ويجوز أن يكون تخييلًا، ويُبنى الأمر فيه على أن الله– تعالى- كلَّم السماء والأرض، وقال لهما: ائتيا؛ شئتما ذلك أم أبيتماه، فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكُرْه، والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات لا غير، من غير أن يُحقَّقَ شيءٌ من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لِمَ تَشُقُّنى؟, قال الوتد: اسأل من يدُقُّنى، فلم يتركنى ورائىَ الحجرُ، الذى ورائى".([١٢٢]) وقد أشار الإمام الزركشى فى باب- خطاب الجمادات خطاب من يعقل- إلى أن هذا الخطاب فيه دلالة مردُّها إلى التخييل؛ إذ جُعل لها قولٌ، وهى حالة عقل، وبأن لها حياة وإدراكًا يقتضى نطقها، على سبيل المجاز؛ بمعنى أنه قد ظهر فيها اختيار الطاعة والخضوع.([١٢٣])

المطلب الثالث: دلالة تركيب التخييل و إقناع الصورة:

استخدم الزمخشرى مصطلح التمثيل مرادفًا لمصطلح التخييل، ومما جاء على هذا حديثه أثناء تناوله لتفسير الآيات الى تدل على عرض الأمانة على مخلوقات الله– تعالى– من أمثال: السماوات، والأرض، والجبال، وقد جعل منها التخييل عقلًا ناطقًا مفكرًا له إرادة، وقد خلع التخييل على تلك الجمادات سمة التشخيص، وألبسها عديدًا من خصائص الإنسان، يقول، عند تفسيره لقوله–تعالى:" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا". سورة الأحزاب: ٧٢:" (إنا عرضنا الأمانة).وهو يُريد بالأمانة: الطاعة، فعظَّم أمرها، وفخَّم شأنها؛ وفيه وجهان: أحدهما أن هذه الأجرام العظام من السماوات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله– عزَّ وعلا- انقيادَ مثلها، وهو ما يتأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعةَ التى تصحُّ منها، وتليقُ بها، حيثُ لم يمتنع على مشيئته وإرادته؛ إيجادًا وتكوينًا وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال:" قالتا أتينا طائعين". سورة فصّلت:١١، وأما الإنسان فلم تكن حاله – فيما يصح منه من الطاعات، وتليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه– وهو حيوان عاقل صالح للتكاليف– مثل حال تلك الجمادات، فيما يصح منها

([١٢٢]) الكشاف ، ج ٤ : ١٦٩ – ١٧٠

([١٢٣]) انظر: البرهان فى علوم القرآن : ٤٧٠

ويليق بها، من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة: الطاعة؛ لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز، وأما حمل الأمانة، فمن قولك: فلانٌ حاملٌ للأمانةِ، ومحتملٌ لها. تريد: أنه لا يؤديها إلى صاحبها؛ حتى تزول عن ذمته، وتخرج عن عهدتها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها، ألا تراهم يقولون: ركبته الديونُ، ولي عليه حقٌّ ؟. فإذا أدَّاها لم تبق راكبة له، ولا هو حاملًا لها، ونحوه: لا يملك مولى لمولى نصرًا. يُريدون أنه: يبذُلُ النُّصْرةَ له، ويُسامحه بها، ولا يُمسكها كما يُمسكها الخاذل، ومنه قولهم: أبغض حقَّ أخيك؛ لأنه إذا أحبه لم يُخرجه، ولم يؤده، وإذا أبغضه، أخرجه وأدَّاه".([١٢٤])

ويجعل فى دلالة تركيب التخييل تصويرًا للمعنى، بما فيه من دقائق وبراهين، واستدلالات، يعكسها التصوير الدلالى لتركيب التخييل، يقول:" ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب، وما جاء القرآن إلَّا على طرقهم وأساليبهم، نحو قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟. لقال: أسوّي العوج، وكم لهم من أمثال على أسنة البهائم والجمادات، وتصور مقاولة الشحم محالٌ، ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يُحسِّن قبيحَه؛ كما أن العجف مما يقبِّح حُسنه، فصوَّر أثر السمن فيه تصويرًا هو أوقع فى نفس السامع، وهى به آنس، وله أقبل؛ وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها، وثقل محملها، والوفاء بها. فإن قلت: قد عُلم وجه التمثيل فى قولهم، للذى لا يثبت على رأى واحد: أراك تقدم رجلًا وتؤخِّر أخرى، لأنه مُثِّلت حاله فى تميُّله وترجُّحه بين الرأيين، وتركُه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه؛ فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما فى هذه الآية؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم؛ فكيف صحَّ بناء التمثيل على المحال، وما مثال هذا إلَّا أن تشبه شيئًا والمشبه به غير معقول ؟. قلتُ: الممثل به فى الآية، وفى قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟ وفى نظائره مفروض، والمفروضات تُتخيَّل فى الذهن كما المحققات".([١٢٥])

([١٢٤]) الكشاف ،ج ٣: ٥٠٢-٥٠٣

([١٢٥]) ونظيره قوله- تعالى:" يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ". سورة، ق:٣٠، وقوله- تعالى:" فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ". سورة الدخان:٢٩، يقول:" وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل، يُقصد به تصوير المعنى فى القلب، وتثبيته". انظر: الكشاف، ج٣: ٥٠٣-٥٠٤، و: ج٣: ٣٣٥

المطلب الرابع: دلالة تركيب التخييل ومتعة الالتفات من الفكرة إلى الصورة:

الالتفات/ هو: نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب، تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر؛ بدوام الأسلوب الواحد على سمعته كما قيل.([١٢٦]) ولقد جعل الزمخشرى من حركة الأفعال الالتفاتية، أداة تنقل الذهن من صورة إلى أخرى، ومن معنى إلى معنى، مما يُكسب التراكيب حيوية، تجعل من نفس المتلقى سياطًا تجلد العقل، ليوازن ويقتنع، ونحوذلك قوله- تعالي:" وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**".سورة فاطر:٩، والسر البلاغى فى استحضار الصورة البديعية الدالة على قدرة الله-تعالي- وكأنها مشاهدة، يقول:" فإن قلت: لما جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟! قلت: ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتُستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه تمييز وخصوصية؛ بحال تُستغرب أوتُهم المخاطب، أو غير ذلك".([١٢٧])**

المطلب الخامس: دلالة تركيب التخييل وقصدية التشارك فى البعد النفسى:

إن تركيب التخييل عند الزمخشرى قد صار إطارًا دلاليًّا يخاطب الأنفس، أكثر من مُخاطبة العقل؛ كما في قوله-تعالي:" فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ**".**سورة الواقعة،٨٣/٥٦ **يقول: الضمير للنفس، وهي الروح، وهي أقرب إليه للمحتضر.([١٢٨]) لأن بلوغ الحلقوم يستلزم تحقق موت الروح، ويدل عليه. وهنا يتضح أن لدى المؤلف خيارات كثيرة لتقرير ما إذا كان عليه أن يدعو المتلقى لأن يتكيَّف مع المعانى الخفية، وهذا يستدعي متلقيًّا من نمط فريد؛ لأن مثل هذه المعانى ليست جزءًا ممَّا يُنقل على مستوى الخبر، الذى يُمكن تأييده، أو إنكاره، فيتطلب الأمر أن تلك المعانى غير مثيرة للجدل، ويُلزم هذا المعيار أن يسوق المؤلف قصده، مراعيًا محددات التلقى.([١٢٩]) ويتعمَّق إلى تخييل التذوق، فيسرد من التعبيرات والتراكيب اللغوية التى تكشف الدلالة العميقة التى يُريدها مؤلف النص، وكأنه يوفر لطاقة التلقى اقتناعًا آخر من خلال استحضار المذاق، يقول، معلقًا على قوله- تعالى:"** لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**". سورة الواقعة:٧٠، بعد أن يُشير إلى أن الله- تعالى- قد حمَّل المُزن أعذب ماءٍ، يقول:" أُجاجًا": مِلْحًا زُعاقًا، أى: شديد الملح، فى مقابلة عذوبة الماء -غاية العذوبة- لا يُقدَر على شُربه".([١٣٠])**

وتتضح قصديةُ المؤلف فى أن يورد أنماطًا من تركيب التخييل، محاولًا توفير بيئة دلالية تهدف إلى إقناع المتلقى؛ حين يزجُّ بدلالات الصورة فى تحليلاته للآيات الكريمة، بل إنه ليجعل إيراد التعبير التصويرى من واجبات مؤلف النص، فهو مُلزم بأن يعرض قصده فى حالة من الوضوح-البعيد عن الإشكال، والذى يفهمه كل سامع، عرف ظاهر كلام

([١٢٦]) البرهان فى علوم القرآن: ٨٢٠

([١٢٧]) انظر : الكشاف ، ج٣ : ٥٣٩

([١٢٨]) الكشاف ،ج ٤ : ٤٠١

([١٢٩]) انظر: التداولية، مقاصد، و آداب : ١٤٩

([١٣٠]) الكشاف ، ج٤ : ٣٩٨

العرب([١٣١])- والإمتاع، الذى تنفعل معه كل ذات شاعرة، مستخدمًا المحسنات الكلامية، مدعومة بالأدلة والبراهين، فهو دائم التنظير، ليقنع المتلقى. يقول:" مُثِّلت حال التكليف فى صعوبته، ونقل محمله بحاله المفروضة، لو عُرضت على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها، واللام فى:(ليعذب) لام التعليل، على طريق المجاز، لأن التعيُّب نتيجة حمل الأمانة، كما أن التأديب فى: ضربته للتأديب. نتيجة الضرب".([١٣٢]) ومتابعة لهذا التوظيف البارع للأصول القاهرية حول تركيب التخييل نجد فى كلام الدكتور عز الدين إسماعيل، ما يشير إلى ضرورة مراعاة البعد النفسى للمتلقى، ومراعاة القواعد الجمالية والمقاييس الموضوعية؛ التى تنادى به اللسانيات الحديثة، حينما ذهب إلى أن النفس تجد لذة في تركيب التخييل، كاللذة التى تجدها في الحِسِّيَات، حيث يكمن الجمال فى البواطن؛ فهى تركن إليه؛ لتُعوض به عن إخفاقها فى إشباع حواس الإنسان، وتوفر لها الجمال، الذى يعلق بالقلوب، وإن أخفقت العناصر اللغوية فى إبراز جماله، وهنا يُرد الجمال إلى مفهومات نفسية.(١٣٣) وتغدو دلالة الكلمات(فعلًا كلاميًّا مباشرًا) دلالة مباشرة، فى حين تصبح دلالة تركيب التخييل دلالة غير مباشرة(فعلًا كلاميًّا غير مباشر). وقد عبَّر الفارابى عن هذا المعنى بقوله:" وليس كل اللذيذات عن الحس، بل في التخييل لذات - أيضًا، وإن كانت بالأحرى أن تنسب إلى الحس، فإن الذاكرين اللذات يلتذون بها".([١٣٤]) وقد سبق أبو حاتم الرازى(ت٣٢٢هـ) إلى هذا المعنى؛ فى تعرضه للفظة" (آمين)؛ مقررًا أن تطويل الصوت يدل على معنى، فيربط بين الصوت والمعنى".([١٣٥]) فصار تركيب التخييل، قرينة صوتية، أو قرينة أخرى لتحديد القصد؛ ودالة عليه، قد تُغنى عن تكرير عناصر لغوية؛ باختزال الصورة، حيث توفِّر دلالة موازية لدلالة العناصر اللغوية المجردة، وتُبالغ فى عرض المحتوى، الذى تعرضه البنية السطحية؛ وتؤثر فى نفس المتلقى وعقله؛ فتتحرك النفس والعقل فى طلبه وإدراكه، والتفاعل معه. وقد أكَّد ابن سينا(ت٤٢٨هـ) أن لجوء المؤلف إلى تركيب التخييل ممَّا يقرِّب المعنى، مشيرًا-بذلك- إلى تلك المحاكاة الدلالية بين نطق الحروف غير المكتوبة، وأصوات الأشياء، التى تحدث عن أسباب غير نطقية، يُسمَع أكثرها من الطيور، ومن لغات أمم شبيهة اللغات بنغم الطيور، وقد عبَّر عن القوة الكامنة فى تركيب التخييل، حين ألزم المستمع أن يوازن بين نطق التاء وقرع اليد بإصبع

([١٣١]) انظر: الصاحبى فى فقه اللغة العربية: ٤٠

([١٣٢]) الكشاف ، ج٣ : ٥٠٤

([١٣٣]) انظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض، وتفسير، ومقارنة، د: عز الدين إسماعيل، (د. ط)، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م:١٤٠

([١٣٤]) انظر: الحروف، الفارابى، حققه وقدم له: محسن مهدى، ضمن بحوث ودراسات رقم: ٤٦، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، لبنان، ط٢، دار المشرق،١٩٩٠م: ٧٥

([١٣٥]) نقلًا عن: القرينة الصوتية وأثرها فى توجيه المعنى عند ابن يعيش(ت٦٤٣هـ)، د: فيراس فخرى ميران، ود: قصى سمير عبيس، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية/ جامعة بابل، ع(١٨)، كانون أول، ٢٠١٤م: ٨١

بقوة، والراء فى ارتعاد ثوب معرض لريح قوية، واللام من لطم الماء باليد؛ والفاء من حفيف الأشجار، والباء فى قلع الأجسام اللينة المتلاصقة، بعضها عن بعض".([١٣٦])

بهذا يعقد ابن سينا رابطًا بين دلالة تركيب التخييل والانفعالات النفسية؛ فقد تدفع تلك الصورة المنعكسة من تركيب التخييل النفس إلى إتيان فعل سلوكى؛ لغوى، أو جسدى، أو نفسى، كأن يتحول الفعل الكلامى اللغوى المجرد إلى انفعال سلوكى، أو ما تسميه التداولية الحديثة: الفعل السلوكى المترتب على الفعل التأثيرى؛ فيترتب على دلالة التخييل انفعال الغضب، مثلًا، أو قد يُسهم وقوع ذهن المتلقى بين دلالة العناصر اللغوية ودلالة تركيب التخييل إلى الوقوف فى منطقة وسطى، فيما يخص الفعل الكلامى، حيث تتحقق الحيرة من تفاوت القوة الدلالية بين العناصر اللغوية وتركيب التخييل، وقد يُقال: إن اقتناع النفس والعقل بما يُساق إليهما من دلالات يسهم فى تصاعد درجة الإعلامية النصية، ويزيد كفاءتها لدى المتلقى، ويمنح النفس والذات الفاعلة همَّة ودافعية، تقوى فعله السلوكى، وهنا قد تغييب الدلالة العقلية، وتبرز إلى الفعل الكلامى الدلالة المنبعثة من تركيب التخييل.

وهذا ما ينادى به علماء النفس المحدثون، من ضرورة لجوء الإنسان إلى الحيل الدفاعية، ومن أهمها: أحلام اليقظة، التى يصحُّ وصفها بأنها صورة من صور إدراك المعانى، التى توازى دلالة تركيب التخييل دلالتها اللغوية؛ فيحاول العقل والنفس- بها- التعبير عن المعانى المضمرة قسرًا، أو التعايش مع حالة شعورية مكبوتة، وهنا يبرز تركيب التخييل بوصفه من آليات إدراك المعنى، والاقتناع به، حيث ينجح فى عرض دلالة، أشبعت حاجةً لدى الإنسان، وغدا يشعر بقدرته على الاحتفاظ بالدلالات، فى مجاوزة من السمع إلى العقل والنفس. ويعلِّل حازمُ القرطاجني(ت ٦٨٤هـ) للذة النفس وانبساطها للتخييل، من غير روية أو تفكُّر، فيرى أن التخييل يشغل النفس عن تفقد مواضع الكذب والمبالغة في الكلام، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس، يقول:" إذا اقترنت بحركتها التخييلية، قوى انفعالها وتأثرها، وإذا تم ذلك؛ فإنه-حينئذ- يكون قادرًا على إحداث الاستجابة المطلوبة، ودفْع المتلقى لاتخاذ الموقف المناسب من التجربة الشعرية، فيستطيع" أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتُحْمل بذلك على طلبه، أو الهرب منه".(١٣٧)

<u>المطلب السادس: دلالة تركيب التخييل وتوظيف طاقة الانفعال لدى المتلقى:</u>

إذا كان عبد القاهر الجرجانى قد أصَّل للتخييل فى إطاره اللغوى، فإن الزمخشرى لم ينظر إلى تركيب التخييل بوصفه قالبًا لغويًّا مجرَّدًا([١٣٨])، على مستوى الكمية والترتيب والهيئة، والمناسبة لنمط المتلقى وطاقته؛ إنما نظر إليه بوصفه قالبًا انفعاليًّا، يصح للغة- بمعناها المتَّسع، وآلياتها المتعددة- التعبير عنه، فيولِّد طاقة دلالية، توفر صورة أخرة من صور المعنى وعناصره؛ وقد أدرك أن تركيب التخييل يُعدُّ إشارة نفسية، لذا نرى الأنفس هى

([١٣٦]) انظر: رسالة، أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرئيس، أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا، (ت٤٢٨هـ)، تحقيق: محمد حسَّان الطيَّان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا: ١٣٦-١٣٧

([١٣٧]) منهاج البلغاء، وسراج الأدباء: ٦٤ - ٧١

([١٣٨]) انظر: البلاغة تطور وتاريخ، د: شوقى ضيف، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م : ٢٤٥

العين المبصرة للمعانى، وإذ تشعر الأنفس بهذا التركيب صياغة ودلالة؛ نراها تُذعن له، وتصدر أمارات ظاهرية لها دلالات وعلامات، بقبول هذا التركيب أو ردّه؛ ويكون انفعالها لدلالة هذا التركيب انفعالًا غير متعقل بنسبة كبيرة، وقد تصدر حكمًا بصدقه أو كذبه.

وقد طرح تركيب التخييل، بوصفه آلية مقصودة، تحصّن المعنى، وتقويه، لمعاونة المتلقى فى فهم المطروح عليه من القوالب الشكلية، ومحاولةَ إقناعه بما تحويه من مقاصد، وهو يؤمن بأن تركيب التخييل يُحرر القالب اللغوى من القراءة السطحية، ولهذا عدَّه بابًا لتقريب المعانى، مرتكزًا إلى قدرة هذه التركيب البديع على التأثير في ذهن المتلقى ونفسه؛ فى معرض قوله- تعالي:" اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**". سورة البقرة:٢/٢٥٥، وعنده أن فى قوله:(وسع كرسيه) أربعة أوجه:**

- **أحدها: أن كرسيه لم يَضِق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلَّا تصوير لعظمته، وتخييل فقط، ولا ثمة كرسى، ولا قعود، ولا قاعد، كقوله:"** وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**". سورة الزمر:٦٧، من غير تصوُّر قبضة، وطيّ، ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسِّيٌّ، ألا ترى إلى قوله:(وما قدروا اللَّه حقَّ قدره).**
- **<u>والثانى :</u> وسع علمه، وسُمى العلم كرسيًّا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.**
- **<u>والثالث</u> : وسع ملكه، تسمية بمكانه؛ الذى هو كرسى الملك.**
- **<u>والرابع :</u> ما روى أنه خلق كرسيًّا هو بين يدى العرش، دونه السماوات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء ".([١٣٩])**

فيبدو-من ذلك-أنه يُصرُّ على نفْى الماديات، واستدعاء الحسِّيَّات وصرْف نظر المتلقى إلى التصورات والحالات النفسية، التى يصل إليها المتلقى حين يحرص على استكناه مضامين التراكيب، وكأنه يجاوز المعنى القريب، أو ما تسميه الدراسات الحديثة: التسطيح النصى، ليدفع طاقة التلقى إلى أن تُعمل كل أوعية مخزنة لديها فى استثمار طاقة التخييل لاقتناص المعنى البعيد.

<u>المطلب السابع: دلالة تركيب التخييل و صورة أخرى للمعنى:</u>

لم يطرح الزمخشرى فكرته عن دلالة تركيب التخييل، بوصفها أداة لمقاربة المعنى فحسب، بل جعلها أداةً مُعضدِّة للجوانب المعرفية والأصولية للتراكيب وضوابط الاستعمال، بهذا الصنيع فإنه لم يكن نسخة من سلفه عبد القاهر، بل تميز باستثماره للأصول القاهرية في سبيل قراءة النص بأدوات إجرائية كفيلة بالكشف عن تلك الطاقات الكامنة فيه. يقول، معلقًا على قول القائل:

([١٣٩]) انظر : الكشاف، ج ١: ٢٨٤

أَخُوكَ الَّذِى لَا تَمْلِكُ الحَسَّ نفسُهُ	وتَرْفضُّ عِنْدَ الْمُحْفِظَاتِ الْكَتَائِفُ. ([١٤٠])

يقول:"أى:لا يُمسك الرِّقة والعطف إمساك الضنين، ما فى يده، بل يبذل ذلك، ويسمحُ به، ومنه قولهم: أبغضْ حقَّ أخيك؛ لأنه إذا أحبَّه لم يُخرجه إلى أخيه، ولم يؤدِّه، وإذا أبغضه أخرجه وأدَّاه، فمعنى:" فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان". فأبين إلَّا أن يؤدينها، وأبى الإنسان إلَّا أن يكون محتملًا لها، لا يؤديها، وحتى يَحتاط لمُراد الخطاب القرآنى، جعل من تركيب التخييل صورة مقنعة، خاصة حين تكون دلالة العناصر اللغوية غير واقعية -Non Factives، أو لا يؤيِّد الواقع صدقها، بصورة كلية وحاسمة؛ فتأتى دلالة تركيب التخييل؛ لتعضد ما يُراد بالإنسان، فتنقل حديث الخطاب القرآنى إلى الجمادات، التى لا تعقل، وهى ثابتة فى الأرض، ليؤكد ثقل الأمانة، وليستحضر الإنسان حمل الأرض والجبال، فيستشعر عظمة المُلقى إليه، ويُريد الخطاب القرآنى- من وراء تركيب التخييل- التأكيد أن" ما كُلِّفه الإنسان بلغ من عظمه، وثقل محمله أنه عُرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام، وأقواه، وأشده أن يتحمله؛ ويستقل به، فأبى حمله والاستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه، ورخاوة قوته".([١٤١]) وبعدُ؛ فإن هذه أمثلة ساقها الباحث؛ ليُجيب بها عن التساؤلات البحثية، وليدلل بها على عظم ما صنع أسلافنا من العلماء، وليشير إلى قدرة تراثهم على التنظير أمام الطروح اللسانية الحديثة و الوافدة.

الخاتمـــــة: وتضم أهم النتائج والتوصيات، و قد جاءت على النحو الآتى:

أولًا : النتائـــــــج :

- **جاء تركيب التخييل - فى فكر الزمخشرى- بوصفه معنى ضمنيًّا، ليدل على تمكُّن المؤلف من عناصر التعبير عن القصدية.**
- **كثيرًا ما كان يحدث فشلٌ، وانهيار لبعض مبادئ التداولية فى توظيف الزمخشرى لتركيب التخييل، وفى سبيل احتياطه لمعناه، وفى محادثته لأرباب الاعتزال.**
- **جاء توظيفه لدلالة تركيب التخييل سابقًا لما تنادى به المدرسة البنيوية التفكيكية؛ حيث عدَّه نسقًا جزئيًّا من الأنساق الكلية المشكلة الدلالة الكلية.**

([١٤٠]) البيت من بحر البسيط، وهو لبشار بن بُرْد، من قصيدة: يا مرحبًا ألفًا والفًا؛ يقول: أخوك هو الذى لا تحتبس الرقة فى نفسه، ولا يضيق ضيق الشحيح الضيق العطن، وهو الذى تتساقط عن نفسه دوافع السوء التى تلتهبها الضغائن التى تثيرها. والحَسُّ، بفتح السين، مصدر للفعل حسِسْت، بكسر السين؛ وبكسر الحاء الاسمُ، لذا يجوز فى قوله: لا تملك الحس، كسر الحاء وفتحها، وهو الرقة والعطف، والحَسَّ، بالنصب، ونفسُه بالرفع فمعنى تملك: تحفظ، وتدخر، أى: أخوك الذى لا تدخر نفسه عنك حسًّا، أى: رقة، وترفضُّ: تذهب وتزول، والمحفظات، بضم الميم، وكسر الفاء: الأشياء التى تُوجب الحفيظة، والحفيظة: الحمية والغضب، والكتائف، جمع كتيفة، وهى: الحقد، و(ال) فى الكتائف: عوضٌ عن المضاف إليه أى: كتائفه وعداوته، أى: عندما تحق الحمية والغضب لك، تزول كتائفه عليك. انظر: ديوان بشار بن بُرد، شرح وتكميل: محمد الطاهر ابن عاشور، شرح وتكميل: محمد شوقى أمين، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م، القاهرة، ج٤: ١٠٩- ١١٠، وانظر: لسان العرب،ج٢: ٨٧٥، مادة(حسس).

([١٤١]) انظر : الكشاف ، ج ٣ : ٥٠٣

- **شكل القصد المركزى عنده بنية نواة، تحولت إلى صورتين للمعنى، إحداهما حملتها العناصر اللغوية، والأخرى جسدتها البنية التصويرية المنبثقة من تركيب التخييل. فى سبق لما تنادى به النظرية التوليدية التحويلية.**
- **استثمر الزمخشرى دلالة تركيب التخييل استثمارًا تداوليًّا.**

ثانيًا : التوصيات : يوصى هذا البحث بعدة توصيات، نذكر منها ما يأتى:

- **إفراد دراسات مستقلة للأطر التطبيقية للتراكيب اللغوية لدى الزمخشرى .**
- **دراسة التركيب الانفعالى و دلالته فى انتقاء التراكيب اللغوية وتفسيرها.**
- **دراسة الدلالات النفسية للتراكيب و النصوص اللغوية .**
- **عقد موازنة على مستوى الصياغة والهيئة والدلالة و تركيب التخييل.**

(ثبت المصادر والمراجع)

- **الأحاديث الطوال، للحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى، حقَّقه وخرَّجه: حمدى عبد المجيد السلفى، ط المكتب الإسلامى، بيروت، دمشق، عمَّان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.**
- **أساس البلاغة، الزمخشرى، ط١، دار صادر، بيروت، (د.ت).**
- **أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، (د. ط)، مكتبة الإيمان، المنصورة، (د. ت).**
- **الأسس الجمالية في النقد العربي(عرض، وتفسير، ومقارنة) د: عز الدين إسماعيل، (د. ط)، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.**
- **إعجاز القرآن، للباقلانى، تحقيق: السيد أحمد صقر،ط٧، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٩م.**
- **البرهان فى علوم القرآن، للإمام الزركشى، تحقيق: أبى الفضل الدمياطى، (د. ط)، (مجلد واحد)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.**
- **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، إبراهيم سلامة،ط٢،الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م.**
- **البلاغة تطور وتاريخ، د: شوقى ضيف، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م.**
- بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، د: الحسين بو هاشم، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة،٢٠١٤م.
- **التداولية، جورج يول، ترجمة د: قُصى العتَّابى، ط١، الدار العربية للعلوم، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.**
- **التداولية (مقاصد، وآداب)، د: صبرى إبراهيم السيد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٩م.**
- **التعريفات، للجرجاني، تحقيق: نصر الدين توني، ط١، القدس للتصوير، ٢٠٠٧م.**

- التفكير التداولى فى كتاب الحروف، لأبى نصر الفارابى، الطالبة: بن شريط نصيرة، رسالة دكتوراه، الجزائر، ٢٠١٦م/٢٠١٧م ، نسخة pdf.
- تهافت الفلاسفة، للإمام أبى حامد الغزالى، تحقيق وتقديم، د: سليمان دنيا، ط٩، سلسلة ذخائر العرب، رقم: (١٥)، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الحروف، الفارابى، حققه وقدم له: محسن مهدى، ضمن بحوث ودراسات رقم: ٤٦، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، لبنان، ط٢، دار المشرق، ١٩٩٠م.
- الخطاب والحجاج، د:أبو بكر العزاوي، ط١، الرحاب، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.
- الخيال فى الشعر، السيد محمد الخضر، مكتبة العربية ، دمشق ، ١٣٤٠ هـ/١٩٣٢م.
- حلية المحاضرة فى صناعة الشعر، لأبى على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى، تحقيق، د: جعفر الكِتابى، دار الرشيد، كتب التراث، (٨٢)، وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٩م.
- الدراسة التداولية فى مادة الحوار فى كتاب العربية بين يديك محمد بن ستيا، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، جاكرتا، ٢٠٢١م/١٤٤٢هـ، نسخة: pdf.
- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجانى، تحقيق: محمود محمد شاكر، (د. ط)، مكتبة الخانجى، ومطبعة المدنى، القاهرة، ١٩٨٤م
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق،د: محمد يوسف نجم، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ديوان ابن الرومى، تحقيق د:حسين نصَّار،ط٣،م دار الكتب، تحقيق التراث،القاهرة،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب:(٢٤) القاهرة، ١٩٩٦م.
- ديوان بشار بن بُرد، شرح وتكميل: محمد الطاهر ابن عاشور، شرح وتكميل: محمد شوقى أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى، تحقيق: الدكتور عِزَّة حسن، دمشق، سوريا، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، من مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، رقم:١
- ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، ط دار صادر، بيروت، (د.ت).
- رسالة، أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرئيس، أبى على الحسين، بن عبد الله بن سينا، تحقيق: محمد حسَّان الطيَّان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا،(د.ت).
- سنن أبى داوود، كتاب الأدب، باب فى النصيحة والحياطة،

- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لجمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحى السيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، لابن هشام الأنصارى المصرى، ومعه كتاب: منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب، محمد محى الدين عبد الحميد، (د. ط)، دار الطلائع، القاهرة، ومكتبة الساعى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٤م
- الصاحبى فى فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها، لابن فارس، علَّق عليه : أحمد حسن بسبج،ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد على بيضون، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- صحيح الأدب المفرد، للإمام البخارى: محمد نصر الدين الألبانى، مكتبة الدليل، ط٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، المملكة العربية السعودية، الجبيل الصناعية.
- صحيح البخاري، (د. ط) ، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- صحيح مسلم، لأبى الحسين مسلم بن الحجاج، القشيرى، النيسابورى، (ت٢٦١هـ)، تحقيق، د: محمد فؤاد عبد الباقى، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- القرينة الصوتية وأثرها فى توجيه المعنى عند ابن يعيش(ت٦٤٣هـ)، د: فيراس فخرى ميران، ود: قصى سمير عبيس، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية/ جامعة بابل، ع: (١٨)، كانون أول، ٢٠١٤م.
- كتاب تخريج الآثار والأحاديث الواردة فى كتاب الكشاف للزمخشرى، المسمى: الإسعاف بأحاديث الكشاف، لجمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف الزيلعى(ت ٧٦٢هـ) تحقيق ودراسة من أول سورة سبأ إلى آخر سورة الناس، رسالة دكتوراه، محمد بن أحمد بن على با جابر، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ نسخة pdf.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الكشَّاف، الزمخشرى، شرح وضبط: يوسف الحمادى، ط١، مكتبة مصر، القاهرة ، ١٤٣هـ/ ٢٠١٠م.
- الكُنَّا ش فى النحو والصرف، للملك المؤيد، أبى الفداء عماد الدين، إسماعيل بن على، (ت٧٣٢هـ)، تحقيق: د: على الكبيسى، ود: صبرى إبراهيم، (د. ط)، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، الدوحة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ضياء الدين، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- المعجم الكبير، للحافظ، أبى القاسم، سليمان بن أحمد الطبرانى، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حمدى عبد المجيد السلفى،(د. ط)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت)،
- المقتصد فى شرح التكملة، لعبد القاهر الجُرْجَانِى، تحقيق، د: أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الدويش، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة الرسائل الجامعية، رقم:٧٨، فهرسة: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- مفاتيح الغيب، للإمام، الفخر الرازي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.
- المفصَّل في علم العربية، تصنيف، لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى، دراسة وتحقيق، د: فخر صالح قدارة، ط١، دار عمار، عمان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره فى البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، م ٢٨، ع ٣، القاهرة، يناير/ مارس ،٢٠٠٠م.
- منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، صنعة أبى الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامى، بيروت.
- المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع، للسجلماسى، تقديم وتحقيق: علال الغازى، ط١، مكتبة المعارف، الرباط ، المغرب، ١٩٨٠م.
- من المدارس الألسنية، المدرسة التوليدية التحويلية، د: إبراهيم محمد إبراهيم محمد عثمان، نسخة pdf، بحث على الشبكة العنكبوتية،cte.univ-setif2.dz/moc
- النظرات، المنفلوطي، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.
- النقد الأدبي(قراءة التراث النقدى)،د: جابر عصفور، ط ١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- الوساطة بين المتنبى وخصومه، للقاضى على بن عبد العزيز الجُرجانى، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلى محمد البجاوى، (د.ط) طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.